ر. و. سَذرن



ترجمة

د. علي فهمي خشيم

د. صلاح الدين حسن



الحضارة العربية

مراجعة/ عمر الدسوقي

نظرة الغرب إلى الإسلام
في القرون الوسطى



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي، في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة .
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

ت : ٣٤٤٨٣٦٨ ، ف : ٣١٤٨٠٤٢

ر.و. سذرن

نظرة الغرب إلى الإسلام

في القرون الوسطى

ترجمة

الدكتور علي فهمي خشيم   الدكتور صلاح الدين حسن

مراجعة

عمر الدسوقي



الكتاب : نظرة الغرب إلى الإسلام
في القرون الوسطى

الكاتب : ر. و. سذرن
المترجم : الدكتور على فهمي خشيم،
الدكتور صلاح الدين حسن
مراجعة : عمر الدسوقي

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الثانية: القاهرة ٢٠٠٢

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٨٠١٤
الترقيم الدولي، I.S.B.N.977-291-381-X

الغلاف
تصميم وجرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكتروني :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : سيد حرزاوى
تصحيح : زكريا منتصر

هذه ترجمة لكتاب :

WESTER VIEWS OF ISLAM
IN THE MIDDLE AGES
By
R. W. Southern

مقدمة الترجمة

قابلت أوربا الإسلام منذ ظهوره بمقاومة عنيفة في شتى المجالات. وكان رفضها له يكاد يكون شاملاً من كل الجوانب. بل هو كان في الحق حاداً في كل الاتجاهات. وإذا كانت الظروف التاريخية، وما يحمله الإسلام ذاته من قوة ذاتية، وحماسة أتباعه، والاندفاع في نشره على أوسع نطاق ممكن - تحقيقاً لرسالته العالمية وإذعاناً لأمر الله نبيه بتبليغها - إذا كان هذا وغيره قد حقق للإسلام الانتشار في أقطار كانت في حوزة أوربا النصرانية في المشرق والمغرب، بل والنفوذ إلى أوربا ذاتها حتى باتت عواصمها الكبرى مهددة بعد فتح الأندلس، فإنها لم تكف عن المقاومة حتى استطاعت رد المسلمين في موقعة «بواتييه» ووقف الفريقان وجهاً لوجه يعد كلٌ عدته لدحر الآخر.

وقد سارت الأحداث - كما نعلم - بعد تلك المعركة بحيث وقف زحف الإسلام على أوربا عند هذه النقطة وتمركز في الأندلس شاملاً غيرها من الأقطار المفتوحة. ثم انداح في إفريقيا وآسيا ودخلته أمم شتى وحقق انتشاره الواسع العظيم. وكانت أوربا متحصنة - في أثناء مد الإسلام - بقلاعها وأبراجها حتى تم بعد قرون فتح القسطنطينية وباتت مهددة من الشرق بعد أن كانت تخشاه من غربها.

ولقد ألفت المجلدات الضخمة في تتبع الحوادث التاريخية والمواقع الحربية، والمعارك وحركات الجيوش، والعوامل السياسية والاقتصادية، والتطورات الاجتماعية، بل وردود الفعل النفسية لهذه الأحداث المتوالية من الجانبين، أوربا النصرانية، بكل ممالكها وشعوبها ونظم حكمها وكنائسها وفرقها، والإسلام ممثلاً في خلفائه وأمرائه وقادة

جيوشه من مشرق ومغرب. غير أن جانبًا مهمًا للغاية - بل لعله أهم جانب في الأمر - ظل منسيًا مهملاً لم يعتن به الكثيرون ولم يتتبعوا دقائقه وتفصيلاته ويبحثوا كنهه وتطوره. هذا الجانب هو الموقف الفكري الذي اتخذته أوربا من الإسلام، بعد أن عرفت مواقفها العسكرية والسياسية والاقتصادية وغيرها.

ولعل ما صرف الباحثين عن التصدي لهذه القضية صعوبتها، والمشقة التي يتوجب على من يبتغي دراستها أن يوطن نفسه عليها. وهي مشقة لا تقف عند حد الخطر الذي قد يتعرض له من ينوي خوض هذ العباب المتلاطم، ولا الحرج الذي قد يبدو لمن يطلب موضوعية درسه وبحثه، بل هي تكمن في عناء تتبع المسائل ومصادرها وملاحقة الوثائق القديمة باللغات المختلفة المتباينة، والغوص في المكتبات وفحص ما تقع عليه العين من مراجع تتصل بالموضوع وتجلوه.

لقد قام السيد «سذرن» بهذا الجهد وقضى فيه سنوات طويلة في محاولة للبحث عن الموقف الذي اتخذته أوربا النصرانية عن الإسلام من الناحية الفكرية البحتة. وهو عرض - بكثير جدًا من الإيجاز والتركيز - هذه المسألة، كما أثار جملة من القضايا المهمة عن تصور أوربا للإسلام ونبيه وكتابه في العصور الوسطى - وهي العصور التي شهدت أوج ازدهار الإسلام وتمكنه كما عاينت الظلمة التي لفت أوربا وجعلتها تتخلف عن ركب التقدم والحضارة قرونًا طويلة.

إن لكل شيء جديد جذوره القديمة. وإذا كان العصر الحديث الذي نعيشه قد يسر للأمم والشعوب أن تتبادل المعرفة عن بعضها البعض، فإن الرواسب الأولى تتغلب - في كثير من الأحيان - على النظرة العصرية الحديثة، رغم المحاولات الجادة التي بذلها كثير من الناس لنزع هذه الرواسب والتخلص من تأثيرها. وإذا كان بعض الأوربيين يسعون جاهدين لمعرفة غيرهم من الشعوب والاطلاع على معتقداتهم وأفكارهم

وما لديهم من منطلقات ـ ونحن هنا نفترض حسن النية بالطبع ـ فإن من الواجب علينا أن نعرف نحن أيضًا ما لديهم ليقولوه عنا أو عن أنفسهم. ويتبع هذا أن نعلم ما كان من جذور قديمة لنظرتهم الجديدة وما وجد من أصول لموقفهم الذي نراه في عصرنا الحديث، انطلاقًا إلى تحديد موقفنا نحن وسعيًا إلى فهم الصورة متكاملة.

إننا ـ نحن المسلمين ـ نؤمن بالحوار طريقًا للفهم، وبالنقاش سبيلاً لإدراك وجهة نظر الآخرين. ونطلب ـ طبعًا ـ أن يفتح سوانا آذانهم لكلمتنا ويعوا ما نقوله، فإن في هذا خيرًا للفريقين وللإنسانية جمعًا. وما أحوج الإنسانية ـ في هذا العصر بالذات ـ إلى إلقاء السمع والنظر في الأمور بروح بعيدة عن التعصب والتزمت والتقليد، وما أحوج المؤمنين إلى تلمس الحقيقة.. ضالة المؤمن التي يطلبها أينما كانت.

من هنا جاءت الحاجة إلى ترجمة هذا الكتاب وتقديمه إلى قراء العربية بعامة والمسلمين بصفة خاصة. فهو قد عرض المسائل وناقش أمورًا وأرخ لناحية مهمة ليست في واقعها نهاية، بل هي بداية لتطورات مقبلة سيسجلها التاريخ. ولعل المؤلف بدأ بروح الباحث المتجرد، لكننا يجب أن لا نغمطه حقه في التعاطف مع ما يؤمن به مما يبدو في بعض العبارات والفقرات، أو مما يمكن أن يعزى إلى أهل الفترة التي يدرسها ويسلط الضوء عليها.

والكتاب كان مجموعة محاضرات ألقاها الباحث في جامعة «هارفارد» الأمريكية، ثم نشرها. وقد اكتظ بالمصادر والمراجع والتعليقات والمقارنات، هي في أغلبها غير ذات فائدة للقارئ، رأينا أن نتجاوزها مكتفين بمتن الكتاب، مع بعض الشروح والتعليقات الضرورية. وقد قام الأستاذ عمر الدسوقي، عميد كلية دار العلوم سابقًا وأستاذ الدراسات العربية، مشكورًا، بمراجعة الترجمة والتعليق على

بعض ما رأى التعليق عليه، أثبتناه في موضعه مشاراً إليه بحرف (د).

كما أثبتنا تصديره مقدرين جهده الكريم في المراجعة والتدقيق والتعليق.

تصدير

صدق من قال: «من جهل شيئًا عاداه». وقد برهن هذا الكتاب الذي نقدمه للقارئ العربي على أن أوربا النصرانية في القرون الوسطى كانت جاهلة تمام الجهل بالإسلام وبحقائقه الجوهرية وأن هذا الجهل كان متعمدًا، فلم يحاولوا أن يعرفوا الإسلام وهو قريب منهم في إسبانيا، حتى نصارى الإسبان الذين كتبوا عن الإسلام وهو بين ظهرانيهم لم يعرفوا عنه شيئًا كما يقول المؤلف، ولو أرادوا لعرفوا، وربما تغيرت نظرتهم إلى الإسلام، بل ربما أسلموا.

لقد أظهر هذا الكتاب معنى التعصب الديني بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، وبخاصة ضد نبي الإسلام محمد ﷺ، فرموه بكل نقيصة، مما يدل على حقد قلوبهم عليه وعلى دينه. ومن العجيب أن يجمعوا على أن الإسلام يخالف العقل، ولا يقبل الجدل، وهذه فرية واضحة، فليس ثمة دين يتمشى مع العقل ويدعو إلى تحكيم العقل، والتفكر في حقائق الحياة باعتبارها وسيلة للوصول إلى الإيمان بالله قبل الإسلام. وتاريخ الإسلام والدعوة إليه منذ أن كان مختفيًا في شعاب مكة إلى اليوم هو دعوة عقلية، فلم تدخل الملايين التي دخلت في الإسلام بالقوة ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾. وكيف يتبين الرشد من الغي إلا بالبرهان الواضح والدليل الناصع الذي يأسر العقول، ويفحم المجادلين؟ وإنما دخلت هذه الملايين وأسلمت لما رأت الإسلام يناشد العقل السليم أولا. لم يصل العرب في فتوحاتهم إلى ماليزيا أو أندونيسيا، أو قلب الصين، وإنما أسلم من أسلم من شعوب تلك البلاد، وهم ملايين عدة، على يد التجار من المسلمين سلمًا لا

حربا. فما كان مع هؤلاء التجار سلاح سوى كلمة الإسلام ودعوة الحق، والقدوة الخلقية الحسنة، في السلوك الشخصي وفي المعاملات. وكذلك الأمر لدى شعوب إفريقيا. وإني أحيل القارئ على كتب «الدعوة إلى الإسلام[١]»، تأليف السير توماس أرنولد، ففيه تاريخ انتشار الإسلام في كل قطر من أقطار العالم، وسيرى أنه لم يرغم أحداً على الدخول في عقيدته، ولم يكن لدى المسلمين وهم في أوج قوتهم أي بادرة من تعصب، وإلا لما بقيت تلك الكنائس والأديرة الشرقية في سوريا ولبنان وفلسطين ومصر إلى اليوم، ولما بقي النصارى في تلك الديار، ولو أراد المسلمون إرغامهم على الدخول في الإسلام لفعلوا، ولتلاشت الأكثرية لأقلية في مدى وجيز، كما فعل نصارى الإسبان مع المسلمين واليهود عقب تقلص الإسلام والحكم العربي من الأندلس.

لقد أقر المؤلف في غير ما موضع أن عقيدة النصارى كنت محترمة لدى الشعوب الإسلامية، وأن كثيراً منهم كان يشغل بعض الوظائف الهامة في الدولة. وإذا كان النصارى قد أجبروا على دفع الجزية، فلأن الإسلام يمنع انتظامهم في صفوف الجيوش الإسلامية، إذ ربما كانوا مصدر فتنة وخيانة، قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.[٢] ودفع الجزية في سبيل حمايتهم والحفاظ على أرواحهم وحرياتهم وكنائسهم وأديرتهم وأوقافهم. وفي الوقت الذي يدفع فيه المسلم ضريبة الدم في ساحات القتال ينعم النصراني بالسلم والعافية في نظير جزء يسير من المال، فهل بعد هذا عدالة وتسامح؟ ولقد كان والي الصعيد في ولاية عبدالعزيز بن مروان (٦٥ ـ

---

(١) ترجم هذا الكتاب الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرون، مطبوع بلجنة البيان العربي، ونشر النهضة المصرية.

(٢) آل عمران، الآية ١١٨.

٨٦هـ) قبطيا اسمه بطرس، وكذلك كان حاكم مريوط قبطيا اسمه تاوفاتس[١]. ويقول آدم متز في هذا الشأن: «ومن الأمور التي تعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية، فكان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الإسلام»[٢]. ولا أريد أن أستطرد فأبين كيف انتشر الإسلام بين أقباط مصر حتى لم ينته القرن الثالث الهجري إلا وقد أسلم أكثرهم طواعية واختيارا، لا قهرا وإجبارا، وكان المجتمع المصري مجتمعا إسلاميا في جملته. ويقول السير توماس أرنولد في كتابه السالف الذكر: «اكتنف الغموض الأساس الديني الذي يقوم عليه وجود اليعاقبة من حيث هم طائفة لها كيانها، وغرق مذهبهم، الذي ناضلوا من أجله طويلا، وقاسوا في سبيله كثيرا، في خضم النظريات البالغة التعقيد، فتملكهم الشك وغلبهم الاضطراب وأجهدهم الجدل العقيم، فتحول كثير منهم إلى دين جوهره واضح بسيط: الإيمان بوحدة الله ورسالة النبي عليه السلام».

ومن أعجب العجب زعم بعض رجال الدين في أوربا أن المسلمين يعبدون آلهة متعددة حتى صار لهم - كما يتخرصون - ثلاثون إلها. ولقد علقنا في هامش الترجمة على كل المفتريات التي وردت بالكتاب، وعلى كل الشبهات التي يروجون لها. ومما يسترعي النظر في هذا الكتاب أنهم كانوا يتهجمون على الإسلام ولا يعرفون عنه شيئا، وخصوصا القرآن. ولقد قام بعضهم بترجمة القرآن مثل (بيتر المحترم) وحاول (السيقوفي) أن يترجم القرآن ترجمة صحيحة لأن الترجمات السابقة كما قال ليست كافية؛ فترجمة (بيتر المحترم) أدخلت في النص القرآني آراء اللاتين، واستعملت كلمات وآراء تتفق مع النصرانية، ولا تتفق مع الإسلام، ويقول المؤلف: «لعل جون السيقوفي لم يكن واقعيا

---

(١) سير الآباء البطاركة لساويرس بن المقفع ص ٥٢ (طبعة باريس).

(٢) الحضارة الإسلامية جـ١ ص ١٠٥.

في اعتقاده إمكان ترجمة (القرآن) دون هذ اللون من المسخ».

ويقول المؤلف: «ليس هناك من شيء يوضح لنا سبب عدم الاهتمام الجاد بالإسلام في المائة والخمسين سنة السابقة على (السيقوفي) غير الصعوبة الكبرى في وجود أي فرد بأوربا يعرف اللغة العربية». ويقول في مكان آخر: «لم يكن هناك نصراني واحد متمكن من اللغة العربية بأوربا كلها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر». فكيف بالله يمكن الحكم على الإسلام عقيدة وعبادة ومعاملة من غير الرجوع إلى النصوص الإسلامية في لغتها العربية؟ ومن ثم كان الجهل بالإسلام، فضلاً عن سيطرة القساوسة على الثقافة في شتى فروعها إبان القرون الوسطى. وليس من مصلحتهم طبعًا التقرب من الإسلام، إن لم يكن لدينهم، فللقمة الخبز وكيان حياتهم. وقد أشار المؤلف إلى نقطة مهمة، وهي أن مدارس اللغات بأوربا قد فكر فيها منذ القرن الثالث عشر للتبشير بالنصرانية، ولكنها كانت في ذلك الوقت حلمًا لم يتحقق إلا في القرون الأخيرة. والحق أن معظم المستشرقين الذين وقفوا حياتهم على تعلم اللغات الشرقية لم يتصفوا - حين يتكلمون عن الإسلام أو عن العرب - بالحياد أو عدم التعصب، بل اتصفوا غالبًا بالانحراف الفكري، أو التأثر بالنزعات الاستعمارية، وبمشاعرهم الدينية. ولقد قام بعضهم بترجمة القرآن، وأنا لا أشك أنها ترجمات محرفة لأنها ترجمات حرفية، ليس فيها سر البلاغة العربية وروحها، وقوة أداء القرآن، وفهم معانيه كما يجب أن تكون.

إن فائدة ترجمة هذا الكتاب هو إطلاع القارئ المسلم على مدى الضغينة التي يحملها نصارى أوربا للإسلام، ولم يخفف حدة الكراهية والضغينة والتعصب مرّ القرون منذ الحروب الصليبية إلى اليوم، وإن كانت النغمة قد تغيرت فكانت استعمارية وحضارية بدلاً من دينية، ولكن الجوهر في حقيقته واحد. ثم الاطلاع على جهل هؤلاء بالإسلام،

ولا أظن أن معرفة الكثرة الغالبة بأوربا اليوم عن الإسلام قد تغيرت كثيراً على الرغم من تقريب المخترعات الحديثة للأمم بعضها من بعض، وامتزاج الثقافات، ولعل التقصير يرجع إلينا نحن، ففي أوربا المادية قلوب عطشى إلى روحانية الإسلام وبساطته، وإنقاذها من حمأة الاضطراب الفكري والمذاهب الهدامة، وحاجتها الماسة إلى الإسلام

إن معظم ما عانته الشعوب الإسلامية من الغرب، في رأينا، على اختلاف أشكاله وألوانه يرجع إلى التعصب الديني في جوهره وقراراته. ونحن لا ندعو إلى تعصب مثله، ولكن ندعو إلى هداية هذه الأمم الضالة وتعريفهم الحقيقي بالإسلام، ولدينا اليوم الدعاة الأكفاء الذين قد تمكنوا من معرفة الدين، والتعبير عن دعوتهم بشتى اللغات. وفقنا الله لخدمة الإسلام والذود عنه إنه ولي التوفيق.

عمر الدسوقي

الفصل الأول
عصر الجهالة

(١)

هذا الموضوع الذي اخترته جدير باهتمامنا ـ فيما أحسب ـ لعدة أسباب. أولها أننا وصلنا في دراستنا لتاريخ العصور الوسطى إلى النقطة التي أصبح من المهم جداً الالتفات فيها إلى مجتمعات خارج أوربا الغربية، وبخاصة تلك المجتمعات التي كانت ذات أثر في تطور الغرب. وليست هذه الفكرة جديدة بالطبع، ولكنها الفكرة التي عليها أن تجابه الصعوبات الذاتية الكبيرة، وتجابه كذلك تحفظات النظام الأكاديمي الراسخ القدم. وأما فيما يختص بالإسلام ـ فإن علاقته بالنصرانية في العصر الوسيط لم تكن موضوع دراسة جادة، إلا في السنين القريبة الماضية. حقاً إن العالم الفرنسي (إيرنست رينان) أبان الطريق ـ منذ أكثر من مائة عام ـ في عمل يعتبر من أفضل ما أنتجت الحركة التاريخية الجديدة في أيامه وأكثره أصالة ـ وأعني بذلك مؤلفه عن «ابن رشد والرشدية»، غير أن أحداً لم يحذ حذوه. وقد كرس كبار المؤرخين في أوخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين جهودهم، في المقام الأول، لدراسة النمو الاجتماعي والقانوني والسياسي في البلاد الأوربية. ولم يبذل مجهود كبير لتفهم إسهام الإسلام في تطور الفكر الغربي أو تأثيره في المجتمع الغربي ـ المجاور للإسلام ـ حتى السنوات الواقعة بين الحربين العالميتين. وقد بدأ العمل يتقدم بنشاط منذ ذلك الحين، وخاصة منذ عام ١٩٤٥م. ولعله من المفيد أن نلقي نظرة عامة على هذا المجال كله كما يبدو الآن. وسيظهر بوضوح أن هناك الكثير من

الجوانب المظلمة والموضوعات التي لم تمس بعد، ولو أن هذه الظلمة قد تكون نتيجة لجهلي أنا وليس لنقص تلك الدراسة وقصورها.

وثمة سبب ثان - أقل أكاديمية مما سبق - يدعو إلى توجيه انتباهنا لهذا الموضوع في هذا الوقت، وهو أن أكبر مشكلة عملية تواجه زمننا هذا هي مشكلة تجاور أساليب التفكير والأخلاق والعقائد المتعارضة، والتي هي إلى حد كبير متعادية، متجسدة في القوى السياسية ذات الحجم المؤثر - إذا لم نقل المثير للرعب. ونحن نتحدث عنها أحيانًا وكأنها مشكلة جديدة - وحقًا إنها جديدة بالنسبة للعالم الحديث.

إن شعور الغربيين بالتفوق في مختلف المجالات لم يلق تحديًا خلال الثلاثمائة سنة الماضية إلا في النادر، وأصبح جزءًا من تراثنا من المؤلم لنا تعديله أو العدول عنه. لكن أوربا الغربية مرت بهذه التجربة المؤلمة كلها منذ ألف سنة وعاشت معها كمتحد دائم يقلق راحتها طوال العصور الوسطى تقريبًا. وكان وجود الإسلام المشكلة البعيدة المدى بالنسبة للعالم النصراني في العصر الوسيط، إذ كان مشكلة على مختلف مستويات التجربة. فهو - باعتباره مشكلة عملية - تطلب اتخاذ إجراءات معينة مع التمييز بين الإمكانيات المتنافسة، كالصليبية والدعوة إلى النصرانية والتبادل التجاري. وباعتباره مشكلة لاهوتية تطلب بإلحاح بعض الأجوبة على غموض وجودها: ما دوره الذي قدرته العناية الإلهية في التاريخ؟ هل كان علامة على نهاية العالم؟ أو هو مرحلة من مراحل التطور في النصرانية؟ هل كان هرطقة، أو انشقاقًا مذهبيًا، أو دينًا جديدًا؟ هل كان من عمل الإنسان أو من فعل الشيطان؟ هل هو تسفيه فاحش للنصرانية أو أسلوب في التفكير يستحق المعاملة باحترام؟

ومن الصعب جدًا - إزاء هذه الاحتمالات - الوصول إلى قرار نهائي. لكن - قبل الوصول إلى قرار - وجبت معرفة الحقائق التي لم يكن من

السهل معرفتها. وهكذا برزت مشكلة تاريخية صار من المتعذر حلها، كما ندر إمكانية تناولها دون معرفة أدبية ولغوية يصعب اكتسابها. وصارت المشكلة أكثر تعقيداً بسبب السرية والتعصب والرغبة القوية في عدم معرفتها خشية الدنس!

وباختصار، فإن علماء العصور الوسطى وأولي الأمر وقفوا أمام جميع هذه المعضلات التي عرفناها في مختلف المجالات، وألقوا الكثير من الأسئلة التي نطرحها الآن، ولعلنا نتعلم شيئاً من إخفاقهم. على أن الشيء الوحيد الذي يجب أن لا نتوقع وجوده في تلك العصور هو الروح المتحررة الأكاديمية، أو البحث الإنساني، الذي تميز به الكثير من البحوث التي تناولت الإسلام في المائة سنة الأخيرة، سواء في رحلات (دوتي) Dougty البطولية أو في كتابات (كارلايل) Carlyle المؤثرة. فإن روح التحرر هذه كانت نتيجة للتفوق، ثم الاقتناع بأنه لم يعد ثمة شيء مخوف. ومن هنا كان هذا العطف البسيط، وكان هذا التقدير. أما المتتبع للأمور في العصور الوسطى فكان يشعر بأن ثمة أخطاراً جمة لا تأذن بمثل هذا التسامح. ويذكرني هذا بفقرة من حياة الدكتور (جونسون) Johnson مدح فيها السيد (مري) Murray حياة قدماء الفلاسفة الذين اتصفت خلافاتهم بالصفاء والدعابة، فأجاب الدكتور (جونسون):

«لقد اتسم خصامهم بالدعابة لأنه لم تكن فيه جدية النقاش فيما يخص الدين. وطالما لا يفقد المرء شيئاً فلا مانع من أن يكون خصمه مرحاً. إنك تغضب من الإنسان الذي يعارض فكرتك التي تعتز بها وهذا نتيجة ضرورية لشعورك بالقلق. فإن أي امرئ يهاجم عقيدتي يقلل - إلى حد ما - من ثقتي فيها، فيجعلني أشعر بالقلق. فأنا بذلك إنما أغضب من الشخص الذي يجعلني أحس بهذا القلق».

فالدكتور جونسون كان ينظر بعين العطف إلى مشاعر النوع

الإنسـاني بدائيـة . وهـو إنما يعبـر بدقـة عن طبـيـعـة النزاع في العصـور الوسطى . فقد أشعر وجود الإسلام الغرب بقلق حاد عنيف آنذاك ، وسبب في المجال العملي قلقاً دائماً ، لا لأنه كان خطراً فحسب بل لأن الخطر كان لا يمكن التكهن به أو تقديره ، إذ لم يستطع الغرب التوصل إلى معرفة نوايا المسلمين ونزعاتهم . غيـر أن هذا العمل ـ الذي لا يمكن تحديده ـ لم يكن سوى علامة على عدم فهم عميق لطبيعة الشيء ذاته[١] .

إن الغـرب ـ في تفهمـه للإسـلام ـ لم يتمكن من الحصـول على أية مسـاعدة من التراث القـديم ولا طمأنينة من الحـديث ، فاعتمـد علنـاً ـ ولعصر كامل ـ على الماضي في مواده . وهذه مسـألة خطرة . ونجد أن أقـرب شيء يوازي الإسلام في وضـعـه من الناحيـة الفكرية هو وضع اليهود ، إذ اتفق المسلمون واليهود في الكثير من العقائد ، كما اشتركوا في العديد من الاعتـراضـات على النصـرانيـة . غيـر أنه كـان في حوزة المفكرين النصارى من المواد ثروة مفحمة لمواجهة القضيـة اليهودية ، كما أن قصور اليهود اقتصادياً واجتماعياً عزز موقف من يرى أن القضيـة اليهودية ينبغي أن تعالج بازدراء ، فلا شيء أيسر من دحض حجج غير الموفقين اجتماعياً . ويمكننا أن نرى هذا قد تحقق في التاريخ البائس لعداء اليهودية في القرون الوسطى . وهذا المزيج نفسـه من التفوق الاجتماعي وتراث عريق من الدحوض الرسـمية كان سبباً في الثقة التي واجهت بها الكنيسـة الكثير من الهرطقات التي ظهرت في أوربا منذ بداية القرن الحادي عشـر ، ويمكن ضغط الانشقاق اليوناني في هذا القـالب : اتحاد الانحطاط الدنيوي والسلطة الكنسـيـة ليمد كل منهما يد المساعدة للآخر .

أما الإسـلام فقد قاوم بعناد هذه المعاملة ، وكان نجاحه باهراً ، وتلت كل فتـرة انهيار مبدئي فتـرة نمو مذهل ومهدد . قاوم الإسـلام الغزو

---

(١) يريد الإسلام

والتبشير وأبى أن يذبل. وعقدت طرافة وضعه العقلي المذهلة صورة تجاه الدنيوي، فالتصديق بإله واحد قادر خالق لهذا العالم، مع إنكار التثليث والحلول وألوهية المسيح، كان موقفًا فلسفيًا صريحًا وصار معروفًا لدى الكثيرين من قدماء المفكرين. وشبيه بذلك الاعتراف بخلود النفس ووجود العقاب والثواب في الحياة الأخرى، مع ضرورة توفر الأعمال الصالحة مثل إيتاء الزكاة لدخول الجنة، كان معترفًا به في السياق نفسه. لكن ما العمل مع مذهب ينكر ألوهية المسيح وحقيقة صلبه، ولو أنه يعترف بعذرية والدته ومزاياه الخاصة كنبي من أنبياء الله، ويعتبر العهدين القديم والجديد «كلمة الله»، ويجعل السلطة الوحيدة لكتاب يمزج - على غير نظام - تعاليم العهدين[1]، ويقبل فكرة الثواب والعقاب في الحياة الأخرى المقدسة فلسفيًا بينما هو يهين الفلسفة بقوله: إن المتعة الجنسية ستكون النصيب الأوفى في نعيم الجنة؟[2] إن دينا لا راهب فيه ولا سرًا مقدسًا قد يكون مقبولاً، ولكن تلك الصفات

---

(١) يريد المؤلف بالكتاب القرآن الكريم. والمؤلف يناقض نفسه حيث سبق أن قرر مخالفة الإسلام للمسيحية في العقيدة، فقد دعا إلى الإيمان بإله واحد قادر خالق لهذا العالم مع إنكار التثليث والحلول وألوهية المسيح.
وهذا الكتاب بيّن أن اليهود والنصارى حرّفوا التوراة والإنجيل، وفي الحق أن التوراة لم تكتب إلا بعد قرون من نزولها على سيدنا موسى من روايات شفوية، وكذلك الإنجيل وقد وردت منه على الأقل أربع نسخ.
واختلاف القرآن عنهما واضح كل الوضوح، ولكن العلة هي جهل المتصدين للبحث عن الإسلام وحقيقته بهذا الدين، والمؤلف لا يؤمن بأن القرآن من عند الله كالتوراة والإنجيل، فإذا وجد بعض التشابه فلأن المصدر واحد وهو الله سبحانه وذلك فيما لم يلحقه التحريف. والقرآن كتاب شامل للعقيدة والمعاملات والعبادات وليس كذلك التوراة والإنجيل (د).

(٢) وصفت الجنة في القرآن الكريم بأوصاف عدة منها الحسي رمزًا وتقريبًا للأذهان، وإلا ففيها كما ورد في الحديث «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». ومنها المعنوي وهو الجزاء الأعظم ألا وهو رضاء الله عن المؤمنين الذين يعملون الصالحات ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ وكذلك محبة =

لدين طبيعي ارتبطت بكتاب مقدس تناوله القليلون من الغربيين الذين تعرفوا عليه على أساس أنه مليء بالسخافات، وبنبي اختاره الله عرف في الغرب عموماً على أساس أنه مخادع وذو حياة غير طاهرة[1].

وهكذا لم تتكون صورة الإسلام هذه في أذهان أهل الغرب إلا رويداً.

=الله لهم ﴿ فاتبعوني يحببكم الله ﴾. والإنسان مخلوق له ناحيتان: روحية وجسمية، ولذا كان جزاؤه منهما معا يوم القيامة، إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

وإذا كان قد ورد في القرآن «الحور العين» وعداً من الله لمن سيدخلون الجنة فليس في ذلك، كما يزعم المتخرصون، متعة جنسية. فالله سبحانه يقول عن الجنة في موضع آخر ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة ﴾ فالحور زوجات من وعدوا بالجنة في الآخرة. وقد نظر القرآن الكريم إلى الزوجة نظرة سامية بعيدة عن المتعة الجنسية ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾. فالزوجة سكن وينبوع للمودة والرحمة ولكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور (د).

(١) لست أدري ماذا يقصد بأن النبي ذو حياة غير طاهرة؟ أيعني حياته الزوجية وكانت دائماً هدفاً لتخرصات المتهجمين على الإسلام ونبيه، مع أنها من أكبر الأدلة على نبوته وطهارته.

تزوج النبي عليه السلام خديجة بنت خويلد أول ما تزوج وهو في الخامسة والعشرين وهي امرأة تجاوزت الأربعين، وقضى معها زهرة شبابه ولم يتزوج سواها إلى أن توفيت بعد خمس وعشرين سنة من الحياة الزوجية، ولما توفيت حزن عليها حزناً شديداً وظل يذكرها بخير إلى أن لحق بالرفيق الأعلى.

وتزوج بعدها عدة نساء ليس منهن بكر إلا عائشة وقد تزوجها إكراما لصديقه أبي بكر، وكل نسائه كن أرامل أو أيامى لم يجدن الكفء من الرجال بعد طلاقهن من أزواجهن الكفار أو بعد موت أزواجهن ومنهن المتقدمات في السن كأم سلمة.

ويحسن هنا أن نشير إلى قصة زينب بنت جحش تبياناً للحق في هذا الموضوع الذي أكثر فيه المبشرون وأذنابهم القيل والقال.

زينب كانت بنت عمة النبي وكانت جميلة، وقد رآها عشرات المرات قبل أن تتزوج ربيبه زيد بن حارثة وكان في إمكانه التزوج منها، وكان زيد رقيقاً أعتقه رسول الله وتبناه. وكانت زينب تترفع عليه لنسبها وشرفها فشكا إلى رسول=

غير أنه بمرور الزمن صارت كل هذه الملامح جزءاً من الصورة، وكان ثمة عذر لمن وصلتهم هذه الصور [المشوهة] في أنها كانت محيرة ولم تشبه أي شيء آخر من تجاربهم. وقد أتى حين بدا فيه من المقبول ظاهرياً حذف هذا الموضوع برمته على أنه نتاج وهمي لخيال فاسد. ولا ريب أن هذا الضرب من التفسير كان سيجد رواجاً عظيماً لو بدت من الإسلام أمارات دائمة على انهياره، غير أن هذا الأمل كان يخيب باستمرار. وفضلاً عن ذلك فإن الإسلام كان عقيدة بعض الرجال الذين دأب الغرب على الإعجاب بهم باطراد ـ وأحياناً بشدة. وهم بحاث وفلاسفة وعلماء، كالفارابي وابن سينا، وابن رشد. وأبطال فروسية، كصلاح الدين وسواه. فكان من الصعب تصديق القول بسذاجة عقول مثل هؤلاء الرجال وضلالهم.

لقد أثرت جميع هذه الاعتبارات المعقدة في رد الفعل الغربي إزاء الإسلام في العصور الوسطى. وكأن هذه الاعتبارات لم تكن كافية فكانت هناك عقدة أخرى ـ لا تدرك إلا نادراً ـ تزيد بلا حساب في جملة

= الله. فطلقها وتزوجها رسول الله، ﴿لكي لا يكون على المسلمين حرج في أزواج أدعيائهم﴾. وأبطل بذلك تقليداً معروفاً وهو عدم الزواج من مطلقة من تبناه. فهل بعد هذا يقال إن حياة النبي كانت غير طاهرة؟

لقد كان في إمكانه ـ وقد صار سيد الجزيرة العربية ـ أن يجمع إليه أجمل بنات العرب والفرس والروم. وأن يوفر لنفسه من الطعام والكساء والأثاث والرياش والزينة مالم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة العربية في زمانه.

ولكن نساءه كن يعشن في شظف من العيش لا ترف فيه ولا متعة. وقد شكون من هذه المعيشة، فخيرهن ﷺ بين الرضا بهذه المعيشة أو الطلاق. مع أنه لو كان رجلاً شهوانياً كما يزعمون لأغدق عليهن الخيرات. ولكن الدنيا لم تكن من همه، بل كان نبياً ورسولاً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

أما اتهامه بالخداع فسيرته كلها تدل على شرفه وصدقه وأمانته حتى لقب قبل الوحي بالصادق الأمين، وما كان له أن يحيد عن هذا وقد اتجه إلى الله ليبلغ رسالته(د).

الصعوبات التي حالت دون أي التقاء ثقافي بين العالم النصراني الغربي والإسلام. ذلك أنهما كانا يمثلان ديانتين متباينتين، فكانا مجتمعين مختلفين اختلافًا بينًا من جميع وجهات النظر تقريبًا. إذ كون الغرب في القسم الأكبر من العصور الوسطى، وفي أغلب أقطاره، مجتمعًا زراعيًا إقطاعيًا رهبانيًا، في الوقت الذي تركزت فيه قوة الإسلام في المدن الكبيرة والقصور الثرية وخطوط المواصلات الطويلة. ونجد، في مقابل المثل الغربية المتسمة في جوهرها بعدم زواج الكهنة وبالنظام الطبقي للكهنة، الإسلام يعارض تطلع العوام الحسي المنغمس في اللذات بصراحة، وينتهج المساواة، مع التمتع بحرية فكر عجيبة، دون رهبنة أو أديرة أرسيت على أساس البناء الاجتماعي في الغرب.

ولا جدال في أن مجتمعين أسسا على مثل هذه المثل والإمكانيات المتعارضة يكونان بالطبع غير متناظرين. لقد مرت على الغرب فترة مديدة من الركود النسبي وهو يجاهد ليحقق في أواخر العصور الوسطى منطلقًا اقتصاديًا واجتماعيًا استمر عدة قرون. أما الإسلام فقد حقق - في وثبة - القوة والثروة والنضج، بيد أنه لم يصل مرة ثانية إلى وفرة إنجازاته الأولى. ولقد استمر في انتصاراته العسكرية التقليدية في الوقت الذي فقد فيه كل أثر لحيويته السابقة. وهذه الحيوية السابقة لم تجد لها - حينما كانت موجودة - أي نظير في الغرب إبان العصور الوسطى. ولقد قطع الإسلام خلال أربعمائة عام من وجوده مراحل من تطوره العقلي لم يستطع الغرب تحقيق نظيرها إلا بعد مرحلة تطور أطول منها بكثير. وقد فقد الكثير [من تراث الإسلام] وصار من المستحيل الحديث عنه بدقة، ولكن من المؤكد أن البلاد الإسلامية أنتجت مجموعة ضخمة ومتنوعة من العلماء والآثار العلمية في القرن التاسع والعاشر والحادي عشر تفوق ما أنتجته النصرانية الوسيطة في المدة نفسها من الزمان.

لقد كان الاختلاف الكبير بين العالم اللاتيني والعالم الإسلامي اختلافًا بين النمو البطيء من جانب والنضج المبكر من جانب آخر، ويكمن السبب الرئيسي لهذا الاختلاف في الفرق بين أساليب الحياة لدى كل منهما. غير أن هناك - إلى جانب الاختلاف في الأساس الاجتماعي - اختلافًا كاملاً تقريبًا في التراث العقلي. فعندما انهار العالم القديم وتجزأ إلى أقسامه المختلفة كان الإسلام هو الوريث الرئيسي لعلم وفلسفة اليونان، في حين ترك للغرب المتبربر أدب الرومان. وقد وضح هذا الفارق الفاجع في بحث عظيم أعده الدكتور (رتشارد والتزر) R.Walzer وبيّن فيه كيف تم الاستيلاء على الفكر اليوناني دون انقطاع من مدارس العالم الهلنستي وكيف نقل إلى القصور والمدارس الإسلامية ووفق بينه وبين الاحتياجات غير التامة الدقة في الدين الإسلامي. وإنه لأعجب حدث في تاريخ الفكر، مثله في ذلك مثل ظهور الإسلام ذاته قوة سياسية وأعجب حقيقة في تاريخ النظم. كان الإسلام مزدهرًا ومترفًا تمامًا، بينما ترك الغرب لآباء الكنيسة والشعراء الكلاسيكيين وما بعد الكلاسيكيين ولمدرسي اللاتينية وأعمال غاية في الصلابة ولكنها ليست مثيرة بعنف، على الأقل في بواكير العصور الوسطى. وإن مقارنة فهارس الكتب الغربية بقوائم الكتب المتوفرة لدى علماء المسلمين لتعطي انطباعًا أليمًا عن حالة العقل الغربي. وهذه المقارنة تقع كأنها قنبلة على علماء القرن الثاني عشر اللاتين الذين كانوا أول من فتح عينيه على واقع هذا الاختلاف.

في أوائل الفترة التي هي موضع اهتمامي في هذا الفصل تقف شخصيتان متعاصرتان تتمثل فيهما هاتان الثقافتان، هما: (جربرت) Gerbert في الغرب - الذي ولد عام ٩٤٠م. وتوفي، بعد أن صار بابا، عام ١٠٠٣م. وابن سينا في الشرق - الذي ولد عام ٩٨٠م. وتوفي عام ١٠٣٧م. وكانا كلاهما رجلي أعمال تبوأا مراكز عليا في مجتمعيهما،

كما كانا أيضاً متحمسين للبحث العقلي. وفيما عدا مواهبهما العظيمة فإنه لم يظهر عليهما أي تفوق على معاصريهما في الأخلاق أو المثل العملية. وهنا ينتهي التشابه بينهما. فالقصور التي عرفها (جربرت) كانت قصور (هيو كابت) Hugh Capet و(أوتو الثالث) Otto III وهما من الحكام الذين كانوا يعيشون كفافاً، من اليد إلى الفم، بأفكار عن المجد تتناقض بوقاحة مع عجزهم العملي. أما المدارس التي عرفها فهي ما كان يتبع الأديرة والكاتدرائيات والتي كانت صغيرة ـ بطبيعة الحال ـ وضعيفة التجهيز بالكتب. أما الكتب التي استمد منها اعتزازه بالاطلاع عليها فهي تلك التي كونت الخزانة الضئيلة من علوم اليونان، والتي استطاع الباحثون في الأيام الأخيرة لروما القديمة تسليمها إلى خلفائهم، من أمثال كتاب (بروفيروس) Prophyrus «المدخل إلى منطق أرسطو» وترجمة (بويثيوس) Boethius ومختصرات لأجزائه الأولي، مع كتبه الصغيرة في الحساب والموسيقى والهندسة والفلك، وبعض المقتطفات في العلوم الطبية اليونانية. ومن هذه المصادر الفقيرة كون (جربرت) أعماله الضحلة: رسم يبين مختلف فروع البلاغة، وكتاب حساب مدرسي، ومجموعة صغيرة من النماذج الجدلية. وعلى هذه الأسس بنى نموذجاً لسير الكواكب ولوحة حساب وساعة معقدة. إنه لمحصول هزيل تخلص من ضآلته بالمجهودات الكبيرة التي بذلت لإظهاره، والتقدم العظيم الذي فاق به كل مجهود سبقه من نوعه.

لو أن (جربرت) ولد في بخارى بدلاً من «أوريلاك» Aurilac، ولو علم في بغداد أو أصفهان بدلاً من «رايم» Rheim، لوجد نفسه في مجتمع مناسب له عقلياً أكثر بكثير من أي مجتمع في الغرب، ولكان في قدرته الحصول على جميع الأسفار التي ربما تاق للحصول عليها.

أما ابن سينا فقد ولد في بخارى بعد أربعين سنة من ولادة (جربرت) تقريباً، وعاش حتى سنة ١٠٣٧م وتوفي في أصفهان. فهو ـ بخلاف

كما كانا أيضاً متحمسين للبحث العقلي. وفيما عدا مواهبهما العظيمة فإنه لم يظهر عليهما أي تفوق على معاصريهما في الأخلاق أو المثل العملية. وهنا ينتهي التشابه بينهما. فالقصور التي عرفها (جربرت) كانت قصور (هيو كابت) Hugh Capet و(أوتو الثالث) Otto III وهما من الحكام الذين كانوا يعيشون كفافاً، من اليد إلى الفم، بأفكار عن المجد تتناقض بوقاحة مع عجزهم العملي. أما المدارس التي عرفها فهي ما كان يتبع الأديرة والكاتدرائيات والتي كانت صغيرة ـ بطبيعة الحال ـ وضعيفة التجهيز بالكتب. أما الكتب التي استمد منها اعتزازه بالاطلاع عليها فهي تلك التي كونت الخزانة الضئيلة من علوم اليونان، والتي استطاع الباحثون في الأيام الأخيرة لروما القديمة تسليمها إلى خلفائهم، من أمثال كتاب (بروفيروس) Prophyrus «المدخل إلى منطق أرسطو» وترجمة (بويثيوس) Boethius ومختصرات لأجزائه الأولى، مع كتبه الصغيرة في الحساب والموسيقى والهندسة والفلك، وبعض المقتطفات في العلوم الطبية اليونانية. ومن هذه المصادر الفقيرة كون (جربرت) أعماله الضحلة: رسم يبين مختلف فروع البلاغة، وكتاب حساب مدرسي، ومجموعة صغيرة من النماذج الجدلية. وعلى هذه الأسس بنى نموذجاً لسير الكواكب ولوحة حساب وساعة معقدة. إنه لمحصول هزيل تخلص من ضآلته بالمجهودات الكبيرة التي بذلت لإظهاره، والتقدم العظيم الذي فاق به كل مجهود سبقه من نوعه.

لو أن (جربرت) ولد في بخارى بدلاً من «أوريلاك» Aurilac، ولو علم في بغداد أو أصفهان بدلاً من «رايم» Rheim، لوجد نفسه في مجتمع مناسب له عقلياً أكثر بكثير من أي مجتمع في الغرب، ولكان في قدرته الحصول على جميع الأسفار التي ربما تاق للحصول عليها.

أما ابن سينا فقد ولد في بخارى بعد أربعين سنة من ولادة (جربرت) تقريباً، وعاش حتى سنة ١٠٣٧م وتوفي في أصفهان. فهو ـ بخلاف

جربرت القس والراهب والأسقف والبابا والسياسي المتآمر بين العلمانيين والذي فشل في تحقيق خططه العظيمة ـ كان علمانيا وموظفا وطبيبا وفيلسوف قصر. وعندما كان في السادسة عشرة من عمره درس ـ كما ذكر لنا ـ مقدمة (بروفيروس) وكل الأجزاء الواضحة في المنطق، مع هندسة (إقليدس) ومجسطي (بطليموس)، ومكتبة كاملة في الطب اليوناني، وبعض الحساب الهندي، والعلم الضروري المعقد، أعني الشريعة الإسلامية. وحتى لو سمحنا لعنصر المبالغة في ذكريات هذه الأعجوبة الشابة فإن الصورة العامة لمصادره لم يبالغ فيها بدون شك. لقد كان تحت يد هذا الفتى كنوز لا تحلم بها أوربا الغربية في ذياك الوقت. إذ التهم ـ عندما كان شابا ـ المنطق والعلوم الطبيعية والرياضيات وما وراء الطبيعة اليونانية القديمة، منتهيا بدراسة جادة لما بعدالطبيعة لأرسطو. ولم يكن هذا كله دراسة منعزلة بل جزءا مكملا للعلوم التقليدية الإسلامية التي ترجع إلى مائتي سنة خلت من قبله. وقد خلف لنا ابن سينا وصفا لمكتبة سلطان بخارى التي احتوت غرفا كثيرة حشدت في كل منها خزائن الكتب، وكانت كل غرفة مخصصة لمادة منفردة، كاللغة والشعر والقانون والمنطق والطب وغير ذلك، بفهرس يمكن الحصول عليه منه على فكرة عامة عن الكتاب القدامى في كل علم. ولم يكن لهذا مثيل في الغرب، ولم يكن لأحد ـ من غير رجال الدين ـ ما يقرب منه حتى نهاية العصور الوسطى.

ولا ضرورة لأن نمضي إلى أبعد من هذا في تتبع هذه المفارقة. فقد كانت أعمال ابن سينا ذاتها، من حيث الكثرة والأهمية، نتاجا يليق بالمنجم الذي استخرجت منه، وقد ألفها وسط حياة مزدحمة غير مستقرة. إذ تنقل ابن سينا في قصور ما يسمى الآن إيران والولايات السوفيتية: تركستان وأزبكستان. وسنرى هذه الأعمال في الغرب ـ فيما بعد ـ عندما صارت أحد عوامل تحطيم الحواجز الثقافية بين الإسلام

والعالم النصراني في وقت أصبحت فيه أعمال (جربرت) نسيًا منسيا .

إن هذا الفارق يقف عند البداية الحقيقية لموضوعنا . فلنلق نظرة إذن على النهاية :

سأنهي هذا العرض بنهاية العصور الوسطى ، إذ تفقد هذه المشكلة الكثير من جديتها وتعقيدها بعد هذه الفترة . وقد يبدو هذا أمرًا غريبًا . فنحن نرى بمجرد النظر إلى الخريطة ، أن ضغط الإسلام وتهديده لأوربا في سنة ١٦٠٠ للميلاد كان أقوى منه منذ ثمانمائة سنة قبلها : فقد أزال بيزنطة ووقف على حدود ألمانيا وعلى طول السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط . غير أن المشكلات الرئيسية التي هي مدار اهتمامنا كانت قد أهملت على الأقل ، إن لم تكن قد حلت نهائيًا . ففي صورة عالم القرنين السابع عشر والثامن عشر الفسيحة الامتداد لم يعد الإسلام متحديًا للغرب ، كما كان في العصور الوسطى . لقد شوهت انقسامات العالم النصراني هذه المفارقة عن العالم الخارجي ، مضافًا إليها الاعتراف بنظم غير نصرانية إلى جانب الإسلام ، والثروة الأوربية المتزايدة ، والانهيار البطيء للإمبراطورية التركية العظيمة ، والنظرة العلمانية الجديدة إلى العالم ، واكتشاف العالم الجديد . هذه كلها عوامل تجمعت فجعلت الإسلام يبدو أقل صلابة من قبل بكثير ، إلى أن استطاع (جيبون) Gibbon - إزاء هذا المشهد السار للتفوق الأوربي - أن يعلن أن «عصر البربرية الطليقة قد انكمش الآن في مقدار شبر . كما أن بقايا الكالموك أو الأزبك[1] التي يمكن حصر قواها لم تعد تستطيع أن

---

(١) الكالموك شعب مغولي يعيش الآن في الاتحاد السوفيتي في جمهورية كالموك السوفيتية ، تنتمي لغته إلى الفرع الغربي من مجموعة اللغات المغولية . ويقع موطن الكالموك غرب نهر الفولغا ، على الشاطئ الشمالي الغربي من بحر قزوين .
والأزبك شعب تركي يعيش قسمه الأكبر في أوزبكستان بالاتحاد السوفيتي أيضا ، ويعيش جزء منه في أفغانستان ، وهم الآن مسلمون سنيون يعيشون على الزراعة ويبلغ عددهم حوالي سبعة ملايين نسمة ، ولهم لغة خاصة ذات ثلاث لهجات .

تثير بشكل جاد قلق الجمهورية الأوربية الكبرى». فمن رأي (جيبون) أن تهديد الإسلام لم يعد سوى ذكرى ربما تعمل على تحذير أوربا ألا تغالي في التملق بآمال الأمن الدائم. «إن هذا الأمن الظاهري يجب أن لا يغرينا بأن ننسى أن لنا أعداء جدداً، ومخاطر مجهولة قد تأتينا من بعض الشعوب التي قلما عرفت على خريطة العالم. فالعرب مثلاً ـ الذين امتدت غزواتهم من الهند إلى إسبانيا ـ أجهدهم الفقر والمذلة حتى جاء محمد ونفخ في أجسادهم المتوحشة روح الحماسة[1]».

وبالرغم من هذه الكلمة المحذرة، فإننا نستطيع أن ندرك بأن محمداً و«متوحشيه» المتحمسين قد أعيدوا في أمان إلى عالم الخرافة مع تيمور لنك وكبار الفاتحين في الزمن السحيق، وشعرت أوربا بالأمن مادياً وعقلياً.

لقد كانت العصور الوسطى هي العصر الذهبي للمشكلة الإسلامية. قامت وسقطت في القرون ما بين ٦٥٠ ـ ١٥٧٠ للميلاد. لكن قيامها وسقوطها لم يكن حركة هينة أو منفردة. ولا شيء يثير الدهشة، عند الملاحظة الدقيقة، أكثر من البطء الشديد لتسلل الإسلام ـ باعتباره حقيقة عقلية متميزة ـ إلى عقول الغربيين، تلته بعد عام ١١٠٠م سرعة

(١) لم يكن عرب الجاهلية متوحشين كما يزعم هؤلاء المتخرصون، بل كانوا مُثلاً رائعة في الشجاعة والكرم والحلم والوفاء بالوعد والبر بالضعفاء. يعشقون الحرية وينجدون الملهوف، ويمدون يد العون للمحتاج.

وقد تركوا في اليمن والحيرة وغسان من الآثار ما بين أنهم كانوا على حظ من الحضارة لا يستهان به في تلك الأزمنة.

وكانوا على قدر وافر من الاهتمام بالأدب مما يدل على عواطف سامية، وظهر فيهم مجموعة من الشعراء العظام لازال شعرهم حتى اليوم موضع الإعجاب والتقدير، واشتهروا بالحكمة العالية، والتجارب الرفيعة. ومن يصفهم بالوحشية لا يعرفهم ويفتري عليهم.

لقد كانت فيهم نقائص، ولكنها إذا قيست بنقائص غيرهم في تلك الأزمان رجحت كفتهم في ميدان الإنسانية (د)

مدهشة في تغيير المواقف التي كانت تأخذ فيها المشكلة الإسلامية دائماً أشكالاً جديدة. كان هذا التغير من جهة استجابة للتحول في العلاقات العملية بين الشرق والغرب، وهو من جهة أعمق كان نتيجة لتبدل الاهتمامات ووسائل الفكر في أوربا نفسها.

وقد قسمت هذه الفترة - لأغراض دراسية - إلى ثلاث مراحل مختلفة. وحاولت أن أضع وصفاً ملخصاً لكل منها في عنوان كل فصل. وسنهتم أولاً بما أسميه «عصر الجهالة». ولعل هذه الجهالة تظهر وكأنها عولجت بقدر أكبر من التساهل في تخصيص ما تبقى من هذا الفصل لها. لكن الجهل في حد ذاته ظاهرة شديدة التعقيد، إذ ميز رجال الدين بين أربعة عشر نوعاً مختلفاً منه. وقد نستفيد شيئاً من هذا التمييز البارع المحكم، إلا أننا - لغرضنا الحالي - سنتبع تصنيفاً أقل نضجاً ونرضي أنفسنا بضربين منه، وسأسميهما: جهل المكان المحدود، وجهل الخيال الظافر. الأول منهما هو الفكرة السائدة لدى الغربيين عن الإسلام خلال القرون الأربعة التالية لعام ٧٠٠م. والثاني خلق اتجاه متميز من الأربعين سنة ما بين عام ١١٠٠م، وعام ١١٤٠م تقريباً. وكان أول هذين النوعين أكثر ارتباطاً بتفسيرات الكتاب المقدس، أما الثاني فكان ارتباطه بالإبدع الخيالي السائد في أوائل القرن الثاني عشر. وسأفحص فيما تبقى من هذا الفصل عن الملامح العامة لهذين الاتجاهين وأبين أثرهما في المستقبل.

(٢)

ولنتجه أولاً إلى جهل المكان المحدود، فإن هذا النوع هو جهل الرجل السجين، يسمع شائعات عن الأحداث الخارجية فيحاول أن يكون شكلاً لما يسمعه مستعيناً بأفكاره التي كونها من قبل. وقد كان الكتاب الغربيون ـ قبل سنة ١١٠٠ للميلاد ـ في مثل هذا الموقف بالنسبة للإسلام ولم يعلموا شيئاً واقعياً عن الدين الإسلامي. إذ لم يكن في نظرهم أكثر من مجموعة من الأعداء تهدد العالم النصراني من كل صوب. فلم يهتموا بالتفرقة بين الأصنام البدائية للنورديين (أهل الشمال) والسلاف والمجريين، وبين التوحيد الإسلامي. أو بين الهرطقة المانوية[١] وبين ما جاء به محمد. ولا يوجد دليل ما على أن أي شخص في شمال أوربا سمع حتى بمجرد اسم محمد. غير أن الكتاب اللاتين ـ بالرغم من جهلهم ـ لم يكونوا مجردين تماماً من دليل يدلهم على مكانة هؤلاء العرب المسلمين[٢] Saracens في السياق العام للتاريخ العالمي، وقد زودهم الكتاب المقدس بهذا الدليل.

ففي تفسير الأحداث الجارية كان من الواضح أن الكتاب المقدس

---

(١) المانوية ديانة ثنائية غنوصية بشر بها ماني في القرن الثالث الميلادي في بابل. وكان ماني فارسيا يقول إن أنبياء كثيرين ظهروا قبله مثل: آدم ونوح ولوط وزرادشت وعيسى، لكن أديانهم كانت محصورة بمحليتها مقصورة على لغة واحدة وشعب واحد وحرفت على مدى الزمان على يد أتباعها الذين فقدوا البصر بحقيقتها الأصلية. وقد حرص ماني على كتابة تعاليمه بيده حتى يحفظها من الفساد، وشجع ترجمة كتاباته إلى اللغات الأخرى كما شجع التبشير بدينه.

(٢) تطلق كلمة Saracens على العرب المسلمين من أهل المشرق (الشرقيين) في مقابل كلمة Moors على مسلمي شمال إفريقيا.

يستطيع تقديم شيئين اثنين، فهو يستطيع شرح أصولهم أو مصيرهم النهائي - بدايتهم أو نهايتهم. ففي التقاليد الدراسية الرئيسية للفترة ما بين سنة ٧٠٠ - ١١٠٠م. كان دور الكتاب المقدس محصوراً في استخدامه للكشف عن أصل العرب المسلمين (Saracens) البعيد في تاريخ العهد القديم، وتكوين علاقاتهم العامة بشعوب وأديان العالم. ومهما يكن من أمر - بالنسبة لبعض الباحثين القلائل - فإن الكتاب المقدس تعرض للمستقبل وبين مكان العرب المسلمين بالنسبة للنهاية الوشيكة لكل شيء. والبحث في الكتاب المقدس لم يكن، في النهاية، ذا جدوى كبيرة في شرح الظاهرة الإسلامية. غير أن دراسة هذا الأسلوب في البحث تصبح ضرورية إذا أردنا فهم الطريقة التي أصبح بها الإسلام أمراً معروفاً لدى عقول الغربيين. وسواء بعد هذا أكانت [هذه الطريقة] خطأ أم صواباً، فقد كان لها أثرها الكبير فيما بعد في الفكر والعمل. وليس ذلك بعجيب، فقد كان الكتاب المقدس إحدى الأدوات الفكرية الفعالة لبواكير العصور الوسطى. فمن العبث إذن إهمال نصوصه المتعلقة بالماضي أو بالمستقبل مهما كانت غرابتها. وكان جزءاً جوهرياً في تربية العالم الغربي أن يتعلم، ولو بالتجربة المريرة في أغلب الأحيان، ماذا يستطيع الكتاب المقدس، أو لا يستطيع، أن ينبئ الناس به عن العالم الذي يعيشون فيه. وما كان دارسو الكتاب المقدس بقادرين على تقديم إسهام للمستقبل أهم من تمحيصهم لهذه المشكلة.

بيـــدي BEDE:

يجب أن نبدأ بالباحث الكبير في الكتاب المقدس (بيدي) في بواكير القرون الوسطى، لقد كان متمكناً من كل دراسات الكتاب المقدس في زمنه وما كتبه كان أساس هذا الفرع من المعرفة حتى القرن الثاني عشر. وفضلاً عن ذلك فإن العرب المسلمين صاروا لأول مرة

موضع الاهتمام الأوربي خلال حياته، وقبل وفاته، وقد بلغوا حدود توسعهم غربا. والغريب - إلى حد ما - أنه لم يكن للعرب المسلمين في عصره أثر خاص عليه، إذ نظر إليهم نظرته إلى قوم كفرة لا شيء لديهم سوى وحشية طبيعية فيهم. وفي «تاريخه» - الذي لم يكونوا فيه بطبيعة الحال جزءاً من موضوعه الرئيسي - اكتفى بجملة واحدة في ذكر تخريباتهم والجزاء الوفاق الذي نالوه في بواتييه[1] Poitiers. أما تعليقاته على الكتاب المقدس فقد كان مسهباً إلى حد ما، إذ كان لديه شيء يستحق الذكر. فقد بين في نقاط مختلفة أن المسلمين كانوا أبناء هاجر زوجة إبراهيم [عليه السلام] المصرية والتي نقرأ عنها في سفر التكوين. وأنت [أيها القارئ] تذكر أن لإبراهيم زوجتين هما: (سارة) و(هاجر)، وأن له ولدين هما على التوالي: (إسحاق) و(إسماعيل)[2]. ويمثل إسحاق - وهو ابن امرأة حرة - في الرمزية النصرانية صورة سابقة للمسيح [عليه السلام]، وتمثل ذريته أعضاء الكنيسة.

---

(١) هي الموقعة التي تصدى فيها شارل مارتل (أي المطرقة) سنة ٧٣٢م لجيوش المسلمين بالقرب من تور، وقد جمع جيشاً عظيماً لوقف زحفهم. وكان قائد المسلمين في هذه المعركة عبدالرحمن الغافقي فلما استشهد فت ذلك في عضد المسلمين، فانسحبوا بليل وكانت لديهم غنائم كثيرة استولوا عليها من المعارك السابقة، فحرصوا عليها، ولم يستأنفوا القتال، ولقد كانت هذه النقطة أقصى ما وصل إليه المسلمون من فتوحات في غرب أوربا، كما تعد نقطة تحول في تاريخ العرب والمسلمين، إذ لو تم النصر لهم لوقعت أوربا في أيديهم وانتشر الإسلام بها، ولم يحاول العرب الاستيلاء على بلاد الفرنجة بعد هذه الموقعة. (د).

(٢) كان مولد إسماعيل سابقاً في الزمن على مولد إسحق، انظر سفر التكوين الأصحاح ١٦، ١٧، ١٨ قصة هاجر وإسماعيل وسارة وإسحاق.

وعلى هذا فإن إسماعيل ونسله يمثلون اليهود. وذلك هو المعنى المجازي للحوادث التي وصفها سفر التكوين. أما المعنى الحرفي فإن النسل الحقيقي لإسماعيل هم العرب. وهناك الكثير من الحقائق المعروفة عن حياتهم والتي تسوغ مثل هذا التفسير؛ فقد طرد إسماعيل إلى الصحراء، وهم قدموا من الصحراء. وكان إسماعيل رجلاً خشناً، وهل ثمة وصف للعرب أفضل من هذا؟ وكان إسماعيل خارج العهد، وكذلك كان العرب. وتوجد عدة طرق أخرى يمكن بها معرفة صفات العرب في ضوء هذا الارتباط بأبناء إسماعيل. ولم يكن (بيدي) أول من أوجدها وإن كان هو الذي قدمها في أسلوب العصر الوسيط لتأويلات الكتاب المقدس، وأصبحت من بعده شيئاً مألوفاً في الدراسات الغربية. وساعدت في تقريب الهوة العميقة بين العالم النصراني وأولئك الأعداء الذين لم يكن بالإمكان التكهن بهم [أي العرب المسلمين].

وقد جلبت المشكلات التي نجمت عن هذا التعريف بعض المتاعب لـ(بيدي) وخلفائهُ. لكنها كانت مشكلات تعليمية محصورة في الأديرة. لماذا - مثلاً - يدعي هؤلاء القوم (سراسين Saracens) إذا لم يكونوا من نسل (سارة) وإنما من ذرية (هاجر)؟ وقد أحب الكتاب تحقيق مثل هذا النمط من الأسئلة. وليس من الضروري أن نتبعهم في تأملاتهم العويصة، فهم لم يضيفوا شيئاً إلى الصورة الرئيسية للحوادث. غير أن ما يثير عظيم دهشتنا من (بيدي) وخلفائه (الكارولنجيين Carolingian[1]) هو انعدام روح الحقد في حديثهم عن العرب المسلمين. وقد كان العرب ينهبون أو يهددون نصف أوربا

---

(١) اسم أسرة حكمت أوربا الغربية، وقد جاءت التسمية من أن عدداً من أبنائها كانوا يدعون كارل (أو شارل) Charles. باللاتينية Carolus، وبالألمانية Karl. وقد سمي ثمانية منهم بهذا الاسم من بداية القرن الثامن إلى نهاية القرن التاسع الميلادي. وكان أشهرهم «شرلمان» - أو شارل الأكبر.

ولكنهم استثاروا عداوة أقل مرارة مما فعلوا فيما بعد. ولا شك أن لهذا أسبابًا عدة، فسكان شمالي أوربا كانوا بعيدين عن العرب المسلمين وعن الخطر الذي أثاروه. وكان هناك أعداء آخرون أقرب منهم كثير منهم لم يكونوا على حدود العالم النصراني بل بجانب جدران الدير نفسه. وكان للعرب دورهم المتواضع نسبيًا في الصراع الكوني بين الخير والشر. وقد بذل الكارولنجيون أقصى جهدهم بالكشف عن العرب ووضعهم في سياق العهد القديم. ثم صاروا قادرين على الرجوع إلى المشكلات الأدبية وأظهروا اهتمامًا زائدًا بها، وكانوا أسعد ما يكونون بمناقشة كلمة (سارة) وهل هي راء واحدة أو راءان اثنان أكثر من سعادتهم بمناقشة طبيعة العرب. وهم كانوا - بالطبع - مهيئين لمناقشة الحالة الأولى أكثر من تهيئهم للثانية، واتجهوا لمثل هذه المشكلات بحماسة، وربما كان هذا هو الاتجاه السائد لدى باحثي شمال أوربا. إلا أن هناك آخرين ممن رفضوا هذا السبيل من الانفصال الثقافي وتحولوا من تاريخ الكتاب المقدس إلى نبوءة الكتاب المقدس في محاولتهم لتفهم الإسلام. وقد عاش هؤلاء الرجال الذين قاموا بهذا في إسبانيا وكتبوا في منتصف القرن التاسع.

الفكر الإسباني الإلهامي (*):

الحقيقة الجديرة بالملاحظة هي أن أي إبداع مهم سنعرض له يمكن إرجاعه إلى إسبانيا. حتى تعريف (بيدي) للعرب المسلمين Saracens بأنهم أبناء هاجر جاء من (إزيدور الإشبيلي) Isidore of Seville.

(*) في الأصل: Apocalyptic. و Apocalypce كلمة يونانية تعني «المستور» أو «المحجوب» أو «غير المكشوف». وكانت تستعمل في البداية للدلالة على الرؤيا (انظر: دانيال - ٨ / ١) ثم استعملت للدلالة على الكتب المتعلقة بها وكان لها طابع الكتابة السرية، وبخاصة فيما يتعلق بالأحداث القادمة ونهاية العالم.

وكـان هذا هو النمط السـائد طيلة العـصـور الوسطى. فـإذا كـانت الإنشاءات الكبيـرة والأنظمة العظيـمة وصـياغة الأفكار قد نتجت في مكان آخر فإن الأفكار الجذرية، سواء كانت إلهامية أم علمية أم بديهية، خرجت كلها من إسبانيا. فقد كانت إسبانيا هي البلاد التي قاست من الإسلام وفكرت فيه أكثر من سواها. وقد يخطر ببالنا على العموم أن الفكرة الإسبانية عن الإسلام كانت غاية في العنف، غير قابلة للتفاهم، شديدة التعصب. لكن هذه الصورة ـ التي تبدو عادية ـ إنما تمثل مرحلة قصيـرة، أو على الأرجح مرحلتين قصيـرتين، في بداية العصور الوسطى وفي أواخـرها تقـريبـا. وبين هذين الزمنين ـ أي بين القـرنين التـاسع والسادس عشر ـ تمتد فترة طويلة كان التأثير الإسباني فيها متنوعا، وكان في جملته معقولاً ومفيداً. بل وحتى في البداية والنهاية ـ عندما كانت أسبانيا رأس حربة حادة للعنف والتعصب ـ كان رد الفعل واضحا بوجه عام حسب ظروف ذلك العصر.

ويمكن أن يتضح هذا الرجوع إلى إسبانيا في منتصف القرن التاسع. فقد كان الوضع في المجتمع الإسباني، في القسم الأكبر من البلاد آنذاك، مطابقا لنظيره في الكثير من المجتمعات النصرانية في جميع أنحاء العالم الإسلامي، حيث أسبغت على النصارى الحماية مقابل دفعهم الجزية ـ وفقا لتعاليم القرآن. فكان لهم أساقفتهم وقسيسوهم وكنائسهم وأديرتهم، كما تبوأ عدد كبير منهم مناصب خطيرة في خدمة أمراء قرطبة. وكل هذا لا غبار عليه. غير أنه جاء في القرآن أن النصارى ـ رغم التسامح معهم وحمايتهم ـ هم في منزلة أدنى [من المسلمين]. ومعنى هذا في واقع الأمر حظر إعلان العبادة أو ضرب النواقيس أو إقامة القداس علنا، وطبعا حظر القذف في نبي الإسلام أو كتابه. وكانوا فوق ذلك في وضع منعزل متطرف عن بقية البلاد النصرانية وفي جهل بمصادر التعليم اللاتيني الدنيوي والديني. ولم يبد أن العلاقات بين قرطبة

وشمالي أوربا ازدهرت بتجارة الرقيق التي بدأت تنشط نتيجة غزوات الألمان للأراضي السلافية في القرن التاسع. وتسجل الرواية الوحيدة لرحلة الرهبان الشماليين إلى قرطبة أنه لم تقم قافلة واحدة من سرقسطة - المدينة الواقعة على التخوم - إلى قرطبة لمدة ثماني سنوات. وقد كان ذلك في عام ٨٥٨م / في ذروة الحوادث التي نحن بصدد الحديث عنها.

أما عزلة النصارى القرطبيين التامة فلا يمكن تصويرها بأوضح من تجربة عالمهم المبرز نفسه والذي زار نافار Navarre في سنة ٨٤٨م وآب بكتب يتعذر الحصول عليها في قرطبة يومذاك، ومن بينها كتاب (أوغسطين) «مدينة الله» City of God، ومؤلفات (فرجيل) Virgil و(هوراس) Horace و(جوفينال) Juvenal. فإذا كانت هذه الآثار يستحيل الحصول عليها في قرطبة فأي شيء يستطيع نصارى قرطبة أن يحصلوا عليه من حضارة روما؟.

وفي خضم الحضارة الإسلامية المشرقة الزاهرة بأدبها العربي وفضائلها النبيلة بات من الضروري أن يهدأ مزاج السكان النصاري. وقد كان هذا الأمر يحدث في النهاية كلما رسخت قدم الإسلام. وقد حدث في إسبانيا:

«أن النصارى كانوا يحبون قراءة القصائد والقصص العربية، ودراسات الفقهاء والفلاسفة العرب، لا لدحضهم بل لامتلاك ناصية لغة عربية سليمة جميلة. فأين - سوى رجال الدين - من يقرأ الآن التعاليق اللاتينية على الكتاب المقدس، أو يدرس الإنجيل والرسل والحواريين؟ واأسفاه! إن الشباب النصراني يدرس ويقرأ - بحماسة - الكتب العربية. إنه يجمع مكتبات كثيرة بأثمان باهظة ويحتقر الأدب النصراني ولا يعيره اهتماماً. لقد نسي الشبان لغتهم. وفي مقابل شخص واحد يستطيع كتابة رسالة إلى صديقه باللاتينية هناك ألف شخص ممن يستطيعون التعبير باللغة العربية في رصانة وينظمون في هذه اللغة

قصائد أجمل مما يفعل العرب أنفسهم».

كان هذا الوضع معروفًا في الإسلام. وكان أمام الغرب فرص كثيرة لملاحظة أثر الفضائل الإسلامية الغلاب عندما تقارن بالفضائل النصرانية. ولهذا لا يوجد في الغالب سبيل أقصر من الغزو أو الردة الدينية يمكن به إيقاف هذا الزحف [الديني]. ولسنوات قليلة تقع بين عامي ٨٥٠ - ٨٦٠م. استثار الشعور التدريجي بالاختناق رد فعل بين حفنة من النصارى، وقادهم إلى الاحتجاج - الذي لم يكن ضد الإسلام بقدر ما كان ضد قناعة إخوتهم في الدين - كما قادهم إلى الاستشهاد.

وقد تزعم رد الفعل هذا رجلان. كان أحدهما قسيسًا يدعى (ايولوجيوس) Eulogius والآخر من العامة يدعى (بول ألفاروس) Paul Alvarus. وقد صار (إيولوجيوس) أسقف طليطلة واستشهد سنة ٨٥٩م. بعد أن كتب تاريخًا للحركة منه نستمد الكثير من معلوماتنا عنها. أما (بول ألفاروس) فقد كتب مؤلفًا جدليًا عنوانه «الإشارات النورانية» Indiculus Luminus تهجم فيه على أولئك النصارى - الذين ينصحون بالاعتدال - وكانوا هم الأغلبية، كما سجل أيضًا حياة (إيولوجيوس). وكانت أفكار الرجلين متفقة حتى ليمكننا - لغرضنا هذا - اعتبارهما يصدران عن فكر واحد. وباختصار فإن كليهما ألهم فكرة أن الحكم الإسلامي إنما هو تهيئة لظهور المسيح الدجال. وقد وجدا في الكتاب المقدس العلامات والشواهد التي كانا يطلبانها، حيث لم يكن من الصعب العثور عليها فيه.

وقد كان من الجائز - لو كانا في ريب من الأمر - أن تنبههم السهولة المتناهية في البحث إلى عمقه. ولكنهما لم يكونا متشككين أبدًا. وتلاهما صف طويل من تابعيهم الموقنين. وعندما قرأ (ألفاروس) الفقرات التالية من «كتاب دانيال» أدرك ماذا تعني وعرف كيف أثارت الموقف في أيامه:

«الدابة الرابعة ستكون المملكة الرابعة على الأرض. وهي التي ستكون مختلفة عن جميع الممالك. وستلتهم الأرض كلها، وستدوسها، وستحيلها إلى قطع مبعثرة».

وقد كانت هذه «المملكة الرابعة» في التفكير النصراني التقليدي هي الإمبراطورية الرومانية ـ القوة العالمية الرابعة التي تلت الإمبراطوريات الآشورية والفارسية واليونانية.

«وقرون المملكة العشرة هي ملوكها الذين سيظهرون».

وهؤلاء هم الغزاة الأباطرة الذين دمروا الإمبراطورية.

«وآخر سيظهر بعدهم، وسيكون مختلفاً عن الأولين، وسيخضع الملوك الثلاثة».

وهؤلاء هم أتباع محمد بإمبراطوريتهم الواسعة الذين انتصروا على اليونان والفرنجة والقوط.

«وهو الذي سيقول كلمات كبيرة ضد الأعلى، وسينهك قديسي الأعلى، ويفكر في تغيير الزمن والنواميس».

أليس أن محمداً والتقويم الإسلامي والقرآن تقوم بنفس هذه الأمور؟

«وهم سيسلمون ليده لمدة ثلاث فترات ونصف من الزمان».

وهنا عقدة الموضوع.

لقد تصرفت في النص بحرية، ولكنها الحرية التي استعملها مؤلفنا ذاته. فقد أوّل (ألفاروس) هذه العبارة الغريبة بأن الإسلام سيزدهر لمدة ثلاث فترات ونصف الفترة، كل فترة منها تقدر بسبعين عاماً، فتكون في مجموعها ٢٤٥ سنة. وبما أنه كان يكتب هذا في عام ٨٥٤م. وكانت بداية العصر الإسلامي في عام ٦٢٢م. (أو عام ٦١٨م. كما كان يعتقد في الأعم) فيكون من الواضح أن نهاية العالم قريبة للغاية. وللصدفة الغريبة ـ لما كان كل شيء يبدو مؤيداً لغرض نرغب نحن في تصديقه ـ فإن أمير قرطبة، عبدالرحمن الثالث، توفي سنة ٨٥٢م.

وخلفه محمد الأول «الرجل الملعون في زماننا». وربما شجع تطابق الاسم مع اسم نبي الإسلام[1] باحثاً أكثر حذراً من (ألفاروس) على القول بأن نهاية كل شيء على وشك الوقوع.

ولا أبغي هنا أن أتتبع في «كتاب جوب»[2] و«سفر الرؤيا» Apocolypse مثل هذه الحسابات المعقدة التي قام بها هؤلاء الرجال المضطهدون. إن قلقهم النفسي وإحساسهم بواجبهم العاجل لحمل إخوانهم على الشعور بخطرهم ورسالتهم كاف لإضفاء بعض الأهمية على هذه الطريقة التي لا تملك - من الناحية العقلية - أي شيء يؤيدها. وهذا أيضاً أقصى ما يمكن قوله عن الكثيرين ممن ترسموا خطاهم. ولم يكن من الصعب عليهم أن يجدوا في الإسلام ومؤسسه خيوط مؤامرة مشئومة على النصرانية. لقد ظنوا أنهم رأوا في جميع تفاصيله - ولم يعرفوا في الواقع إلا النذر اليسير جداً - ذلك الإنكار الكامل للنصرانية الذي هو علامة على ظهور المسيح الدجال. وقد كان في حوزتهم مختصر تاريخ حياة محمد من نتاج إسباني مهلهل، مقام على السير البيزنطية، تعلموا منه أن محمداً مات في سنة ٦٦٦ بحسب «التقويم الإسباني». وما كان لهم أن يدهشوا حين وجدوا أن هذا الرقم هو رقم «دابة الوحي» - وهي صورة المسيح الدجال. ولم يكونوا ليدهشوا أيضاً حين ألفوا أن حياة محمد صورة هزلية لحياة المسيح.

ومهما قيل عن كل هذا فإنها النظرة الأولى الجدية المتينة والشاملة عن الإسلام، والمتصلة بالظروف المعاصرة التي تكونت في الغرب. صحيح أنها نتاج جهل، ولكنه الجهل الغريب التعقيد. فأولئك الرجال الذين تكونت لديهم هذه النظرة كانوا رجالاً سطروا ما جربوه بعمق،

---

(١) جاء في الأصل وصف ناب للرسول الكريم حذفناه.

(٢) Book of Job - كتاب من العهد القديم يوجد في القسم الثالث والأخير منه، ويحتوي على: مقدمة. حوار بين جوب ورفاقه. كتاب اليهو. كلام الله. خاتمة.

وربطوا تجربتهم بالأساس الثابت الوحيد المتوفر لديهم ـ أعني الكتاب المقدس. لقد كانوا على جهل بالإسلام، لا لأنهم كانوا بعيدين عنه كل البعد ـ كما هو الحال مع الباحثين الكارولنجيين ـ بل على العكس من ذلك تماماً، فقد كانوا في داخله. فإذا رأوا وفهموا القليل مما كان يدور حولهم، وإذا لم يعرفوا شيئاً عن الإسلام باعتباره ديناً، فما ذاك إلا لأنهم أرادوا أن لا يعرفوا عنه شيئاً. وإن وضع أقلية مضطهدة وغير محبوبة، ضمن أقلية أخرى، ليس وضعاً ملائماً للبحث العلمي في مكانة المضطهد الحقيقية. والجدير بالذكر أنهم فضلوا أن يستقوا معرفتهم عن محمد من المصدر اللاتيني الهزيل الذي وجده (بولوجيوس) في بلاد نافار النصرانية دون القرآن، المنبع الرئيسي، أو العدد الكبير من كتب السيرة التي سجلها معاصروهم من المسلمين. لقد كانوا يفرون من أحضان الإسلام، ولم يكن من المحتمل أن يلتفتوا إلى الإسلام ذاته ليدركوا ما الذي كانوا يفرون منه.

الأثر الكارولنجي:

بالرغم من أن آراء مشابهة لتلك التي جاء بها (إيولوجيوس) و(بول ألفاروس) كانت تظهر مهزوزة الفينة بعد الفينة في عالم الغرب، فإن ما يبعث على الاستغراب ـ مع اعتبار السهولة التي يمكن بها استمرار هذه الآراء وسوق الأدلة على صوابها ـ أنها لم تحز أبداً على الرضا العام. فإن الكارولنجيين المعاصرين لهؤلاء الكتاب الإسبان لم يبدوا أي ميل نحو السير في اتجاه تفكيرهم. ومع أن شيئاً من المعرفة اليسيرة لحياة الشهداء الإسبان وصل فعلاً إلى الشمال، ولعل التعرف على أفكار هؤلاء الشهداء أوحى ببعض المناقشات عن المسيح الدجال ونهاية العالم، فإن هؤلاء الباحثين الشماليين تجاهلوا، في مناقشتهم لهذا الأمر، دور العرب المسلمين.

هناك استثناء واحد لهذا الحكم يجدر بنا ذكره، لأنه يصور الفرق الكبير في المزاج بين باحثي شمال أوربا وباحثي إسبانيا النصرانية يومذاك. وذلك أن معاصرا (لإيولوجيوس) و(بول ألفاروس) - أعني (باسكاسيوس راديبرتوس Paschasius Radbertus) أعلم رجل في زمانه بأرض الشمال - ناقش علامات الساعة في تعليقه المطول على إنجيل متى، وتعرض لذكر العرب المسلمين، لا ليثبت أن من بينهم المسيح الدجال، بل ليعرض رأيه الأكاديمي الوديع الذي يتلخص في القول بأن وجود الإسلام خارج الكنيسة لا يعني بالضرورة أن القيامة بعيدة. وفي هذا الموضوع الضخم المثير للخوف كان الكارولنجيين على أفضل ما يكون عليه الفكر التقليدي في العصر الوسيط، فقد اعتصموا بالحذر والاعتدال - وهي النصيحة التي يسهل اتباعها في دير ناء جداً عن العرب المسلمين وقريب للغاية من شرور أخرى. غير أننا سنرى أن التأويل الإلهي للإسلام سيكتسب فرصة جديدة للحياة، حين يصبح الموقف مهدداً - وخاصة عندما يتساوى خطر التهديد الخارجي بخطر الاستسلام الداخلي.

(٣)

تبدلت العلاقة بين العالم النصراني والإسلام فجأة بقيام الحروب الصليبية الأولى. ولم يأت هذا الحدث بمعرفة جديدة، بل على العكس من ذلك تماماً. فإن الصليبيين الأوائل وأولئك الذين لحقوا بهم في فلسطين لم يروا، ولم يدركوا، إلا النذر اليسير مما كان يجري في الشرق. ولم يثر النجاح المبدئي الذي أحرزوه ردود فعل إلا ردود فعل التفوق والازدراء. غير أنهم جعلوا من الدين الإسلامي، ومن مؤسسه، مفهومات ذات دلالة في الغرب لأول مرة. ولم أجد قبل سنة ١١٠٠م اسم محمد يذكر إلا مرة واحدة في الأدب الوسيط خارج إسبانيا

وجنوب إيطاليا . أما بعد عام ١١٢٠م فقد بات لدى كل فرد في الغرب صورة للإسلام ومن هو محمد هذا . وقد كانت هذه الصورة زاهية واضحة ولكنها لم تكن مبنية على معرفة حقيقية ، كما أن تفصيلاتها كانت صحيحة بمحض الصدفة ، وكان مؤلفوها ينعمون في جهالة الخيال المتفوق .

لقد تولدت صورة النبي وطبيعة الإسلام في أوربا خلال الأربعين سنة أو نحوها من بداية القرن الثاني عشر الميلادي في أثناء الانتصارات . وضمت أجزاؤها بعضها إلى بعض في شمالي فرنسا ، ولعلها أثيرت بقصص الحرب التي كانت يرويها المحاربون العائدون والكتبة البعيدون جداً عن ميدان المعركة . أما في المدارس فقد وضعت بالشكل المناسب للعقول الغربية . فكانت النتيجة تلك الصورة المذهلة المتماسكة ، التي استطاعت أن تعيش بعد ظهور وانهيار أنماط كانت خيراً منها .

ولكي نفهم متانة قصص تلك الفترة يجب أن نلاحظ أنها تكونت في فترة تطور خيالي كبير كان يمر بها غرب أوربا . فقد كانت هناك روايات (شارلمان) Charlemagne وعلى أثرها روايات (آرثر) Arthur ، فمعجزات العذراء وعجائب روما وأساطير (فرجيل) Virgil ، وتاريخ بريطانيا الأسطوري ، وكل نتاج الفترة ذاتها تقريباً ، وهي وجهة النظر التي أنتجت أساطير عن محمد والوصف الوهمي للعبادات الإسلامية . ولم يكن هناك سوى شك قليل في أن هذه الخرافات والأوهام قبلت ـ عند تأليفها ـ على أساس أنها تمثل إلى حد ما تقريراً صادقًا لما أريد إيضاحه ، غير أنها نالت بعد تمامها الطابع الأدبي الخاص بها . ولم تتغير صورة محمد وأتباعه على مستوى الشعر الشعبي من جيل إلى جيل إلا تغيراً طفيفًا . وكما هو الحال في شخصيات القصص المحببة كان من المتوقع أن يوجد فيهم تلك الأوصاف الخاصة التي

استطاع المؤلفون استعادة وصفها لعدة مئات من السنين. ومن الصعب القول متى أصبحت تلك الشخصيات معروفة على أنها مجرد صور ملفقة يخوف بها الأطفال الأشقياء، ومن المؤكد أن ذلك لم يكن وضعها الأصلي.

إن تحليل نتاج هذه الفترة بالتفصيل لن يفيد بحثنا في شيء، لأنه يتعلق بتاريخ الخيال الغربي أكثر من تعلقه بتاريخ التفكير الغربي حول الإسلام. لكن لابد من كلمة عن المصادر التي أخذ منها كتاب هذه الفترة على كل حال.

ففيما يتعلق بحياة محمد كان لدى الكُتّاب الغربيين قليل من الحقائق نقلوها عن الكُتّاب البيزنطيين. وهي تدور حول زواجه بأرملة ثرية، وعن نوبات صرعه، وثقافته النصرانية، وخطته التي تتعلق بالإباحة الجنسية العامة كأداة لهدم النصرانية[1]. وقد شيد صرح هائل فوق هذا الأساس الواهي الذي لا يمكن ربطه بأي تسلسل تاريخي.

وعندما سئل الكُتّاب اللاتين في بداية الأمر: أي نوع من الرجال كان محمد؟ ولماذا كان ناجحًا؟ أجابوا بأنه كان ساحرًا هدم الكنيسة في إفريقيا والشرق بالسحر والشعوذة، وثبت نجاحه بإباحة الاختلاط

---

(١) كل هذه أباطيل نشأت عن الجهل بالإسلام ورسوله، فقد أولوا نزول الوحي عليه بأنه نوبات صرع «ألا ساء ما يأفكون»! وقد ورد في حديث السيدة عائشة «إنه ليتنزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد وإن جبينه ليتفصد عرقًا». ولست أدري من أين أتى لهم أن الإسلام يبيح الحياة الجنسية هكذا بدون ضابط، وكيف تكون هذه الإباحة الجنسية سببًا في هدم النصرانية؟!. لقد اعترف الإسلام بالنصرانية دينًا «مصدقًا لما بين يديه من الكتاب»، وآمن بعيسى نبيًا من عند الله ورسولا، لا إلهًا كما يزعمون. ولكنه الجهل والتعصب الأعمى وحرص رجال الكنيسة على لقمة الخبز هو الذي أوغر صدورهم ضد الإسلام وترويج الأكاذيب عنه وعن نبيه ﷺ. (د).

الجنسي [1]. وهناك بعض التفاصيل الأخرى، من مثل دور الثور الأبيض

---

(١) إذا كان المقصود بهذا الاختلاط الجنسي تعدد الزوجات فالإسلام لم يمنع الاكتفاء بزوجة واحدة بل حبذه وحض عليه، ولم يوجب تعدد الزوجات بل أنكره وحذر منه. وقد شرع الإسلام الزواج لأناس يعيشون على ظهر الأرض لا لملائكة وأرواح تعيش في السماء. وكان تعدد الزوجات مباحا قبل الإسلام في اليهودية والمسيحية. فلم يرد في الأناجيل نص واحد يحرم ما أباحه العهد القديم للآباء والأنبياء منذ عهد إبراهيم إلى أن جاء المسيح. وقال وستر مارك Wester Mark العالم الثقة في تاريخ الزواج: إن تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي إلى القرن السابع عشر، وعرض جروتيوس Grotius العالم القانوني المشهور لهذا الموضوع واستصوب شريعة الآباء العبرانيين والأنبياء في العهد القديم، فقد تزوج إبراهيم اثنتين وتزوج يعقوب بأربع. وكان لداود ما يقرب من المائة، وسليمان ألفا. وجاء الإسلام فقضى على هذه الفوضى وعلى عهد الخليلات.

فالزواج في الإسلام لبناء الأسرة، والزوجة رحم ومودة وسكن (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة).

وإذا كان قد أباح التعدد فللضرورة كأن تكون المرأة عقيما لا تلد، أو مريضة لا يريد فراقها، أو أن يتكاثر عدد النساء بالطبيعة، أو على أثر الحروب. وعلى كل حال فالمرأة في الإسلام لا تزوج إلا برضاها بكرا كانت أو ثيبا، فإذا رضيت أن تشارك أخرى زوجها فذلك لها وإلا رفضت.

وما ورد في الإنجيل يشير إلى إباحة تعدد الزوجات إلا في حالة واحدة وهي حالة الأسقف حين لا يطيق الرهبانية فيقنع بزوجة واحدة اكتفاء بأهون الشرور، وقد استحسن القديس أوغسطين أن يتخذ الرجل سرية مع زوجته إذا عقمت وثبت عليها العقم، وحرم مثل ذلك على الزوجة إذا ثبت عقم زوجها لأن الأسرة لا يكون لها سيدان.

ثم إن الإسلام اشترط العدل بين الزوجات في كل شيء، ونبه الناس إلى صعوبة العدل (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) ويقول في موضع آخر: (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) واشترط على الأزواج القدرة على تكاليف الحياة الزوجية والتسوية في السكن والرزق: (أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم).

فهل بعد هذا يقال عن الإباحة الجنسية في الإسلام؟ وإن من يقرأ العهد القديم يرى العجب العجاب من أمر هذه الإباحة (راجع الباب السادس، والسابع من سفر القضاة، والباب الحادي عشر من الرسالة العبرانية، والباب الثامن عشر من سفر صموئيل الآية السابعة والعشرين وغيرها). (د).

الذي أرعب السكان وأخيراً حمل الناموس الجديد على قرنيه، أو حكاية تعليق قبر محمد في الهواء بالمغناطيس - وهذه من الأدب الشعبي - ثم حكايات أخرى من مثل وفاة محمد وقتل الخنازير له شر قتلة في خلال إحدى نوبات صرعه - وهذه من المبالغة المقيتة الواردة بشيء من التفصيل في التراث البيزنطي. كما توجد بعض التفاصيل ذات الارتباط الوثيق بالمجموعة الكبيرة من الأساطير الشائعة عن النبي في الإسلام، وأخرى مختلفة تمام الاختلاف. وقد أحسن التعبير عن روح هذا الأدب أعلم المؤلفين المسئولين عنه. فحكاية (جوبرت النوجنتي) Giubert of No-gent المختصرة عن محمد تعتبر إحدى سير النبي الأولى التي ظهرت في الغرب خارج إسبانيا. وكان أكثر شكاً في مصادره من الكثيرين من معاصريه في شمالي فرنسا. وقد اعترف بصراحة بأنه لم يكن أمامه أي مصدر مكتوب يمكنه الاعتماد عليه في حكايته عن محمد(١). فما يرويه إنما هو مستمد من الرأي العام ولا يستطيع الجزم بما إذا كان صحيحاً أم خطأ. غير أنه يمكنه أن يقول: «إنك تستطيع أن تذم شخصاً تتجاوز عداوته أي قدح يمكن أن يقال فيه». وقد استثارت هذه القاعدة - للمدح أو الذم على السواء - قدراً كبيراً من الكتابة في النصف الأول من القرن الثاني عشر، وأطلق أتباعها للخيال العنان.

وقد شكلت هذه الحرية نفسها صورة العقيدة الإسلامية التي شاعت في جميع شعر الغرب القصصي من (أنشودة رولاند) The Song of Roland إلى ما بعدها من آثار، ظهر العرب المسلمون فيها متحدين في شيء واحد هو عبادة الأصنام! فنراهم في (أنشودة رولاند) يعبدون ثلاثة آلهة هي: تيرفاغان Tervagan ومحمد وأبوللو Apollo، ثم صار لديهم آلهة أكثر بعد ذلك بحكم عملية تطور طبيعية. وقد أحصي لهم -

---

(١) يقول المؤلف في الهامش ص ٣١: «لم يدرك اسم الرسول الحقيقي وسماه ماتيوس واعتقد أنه وجد في زمن قريب من زمنه هو».

في هذا الضرب من الأدب - مايزيد عن ثلاثين إلهًا، تكون فرقة بهيجة الطابع بوجود (لوسفير) Lucifer و(جوبيتر) Jupiter و(ديانا) Diana و(أفلاطون) Plato، ثم المسيح الدجال! لكن هذا لم ينشأ إلا عن خصوبة الوهم الشعبي، فإن أي شخص اهتم بمعرفة شيء عن الإسلام أدرك في الحال أنه أشد الأديان تمسكًا بالتوحيد. ومهما يكن فأغلب الظن أنه لم تكن للاتين في بادئ الأمر أية تجربة مع أي دين غير دينهم هم. فلا يمكنهم لذلك إلا تصور الخطأ الذي يأخذ شكل التطرف في خطوط معروفة. فإذا عبد النصارى ثالوثًا - مثلاً - فلابد، كما يتخيلون، أن يعبد المسلمون ثالوثًا كذلك - لكنه في رأيهم ثالوث سخيف. وإذا عبد النصارى موجدهم[1] فلابد، كما يتخيلون، أن يعبد المسلمون موجدهم - بطقوس وضيعة تتلاءم مع رجل وضيع وشعب منحط.

إن الناس، بالضرورة، يشكلون (في أذهانهم) العالم الذي لا يعرفون على مثال العالم الذي يعرفون، ولا توجد هذه الظاهرة في أي مكان أوضح مما هي في أوائل الأدب اللاتيني عن الإسلام. ولقد تعرضنا، في هذا الفصل، لتفسيرات مختلفة للإسلام قامت على أنواع مختلفة من الجهل. ولم يكن من السار - بل ربما يحسب من غير المفيد - التركيز على الجهل في أي شكل كان. بيد أنه كان لهذه المحاولات في تفسير الإسلام تأثيرها العميق في مستقبل الفكر؛ فقد هيأت للإسلام مكانه في ثلاثة من التقاليد العظيمة للفكر والوجدان الأوربي - أعني تاريخ الكتاب المقدس، والنظرة الإلهامية، والخيال الشعبي. ويستحيل عدم الشعور بالتعاطف الشديد مع النزاهة التي استخدم بها (بيدي) والبحاثة الكارولنجيون مصادرهم الضئيلة، كما أن معاناة الدارسين الإسبان تضفي شيئًا من الوقار على مجهوداتهم الأكثر جرأة. أما عن التركيبات الخيالية لمطلع القرن الثاني عشر فمن الصعب الحديث في

(١) يريد مؤسس ديانتهم أي المسيح.

صالحها ، فإن الأخطار النزقة للقوة الناضجة أقل معذرة من تلك التي تنجم عن الجهل اضطراراً . غير أن أوهام مطلع القرن الثاني عشر كانت ـ كما سنرى ـ أكثر اتصالاً ببداية روح جديدة للبحث أكثر نقداً . تلك هي الروح التي كانت ، دون شك ، أكثر تلاؤماً مع طرق تفكيرنا المعاصر من تلك التي تعرضنا لها من قبل ، وهو ما سأحاول إيضاحه في الفصل التالي .

الفصل الثانى

قرن التعقل والأمل

ذكرت في آخر الفصل السابق أن أوهام بداية القرن الثاني عشر يمكن - إلى حد ما - تبريرها على أنها وسيلة إلى نقد أكثر تقديرًا للإسلام مما رأيناه سابقًا، والحقيقة الواضحة بالتأكيد هي: كما أن السحر والعلم لم يكونا متمايزين في أصولهما فكذلك يبدو أن بين الخيال والملاحظة مشابهة خفية تجعل الأول يساعد الثانية في تطورها. ومن ثم فإنه لا غرابة في أن تأتي أولى الملاحظات الدقيقة في الغرب عن الإسلام باعتباره دينًا، من رجال ساهموا بقدر وافٍ في الأدب الخيالي لتلك الفترة. ويخطر ببالي في التو (وليام المالمسبري) William of Malmesbury الذي تعرض تواريخه شغفًا خاصًا بالسحر والأعاجيب، لكنه كان - فيما أعلم - أول من فرق بوضوح بين أساطير عبادة الأصنام والخرافات الوثنية السلافية وبين التوحيد في الإسلام، كما أكد - خلافًا للرأي الشعبي السائد آنذاك - أن الإسلام لا يعتبر محمدًا إلهًا، بل نبيًا. وقد سجل (وليام) هذه الكلمات في سنة ١١٢٠م. عندما كان سيل التزييف في هذا الباب طاميًا. وكان هناك أيضًا الرجل البارز (بطرس ألفونسي) Petrus Alfonsi وهو يهودي إسباني اعتنق النصرانية في سنة ١٩٠٦م. ثم اتخذ فيما بعد مقامه في بريطانيا حيث عمل طبيبًا للملك (هنري الأول). وفضلاً عن أن (ألفونسي) هذا كان أول من نقل الأساطير الشرقية إلى اللغة اللاتينية وأول من نبه إلى العلوم

العربية في الغرب، فإنه كان كذلك صاحب أول تاريخ لمحمد ودينه له شيء من القيمة. وعلى الرغم من تجنيه فإنه - على الأقل - قدم الإسلام شيئا فيه إمكانية الاختيار أمام شخص غير ملتزم. وفي مصدر آخر من أضعف المصادر - أعني كتاب «تاريخ شارلمان» History of Charle-magne المنسوب لشخص يدعى بسيودو توربين[1] Pseudo Turpin، الذي ظهر على الأرجح قبل سنة ١١٥٠م بقليل، في هذا المصدر خلط يمثل سمات العصر خير تمثيل، ونحن نجد في هذا العمل جميع التفصيلات المعهودة عن العرب المسلمين «الوثنيين» التي تعج بها القصص الشارلمانية، وفي صلبها مناظرة لاهوتية بين (رولاند) Roland والعملاق العربي (فيراكوتوس) Ferracutus، تكشف عن تمكن تام من النقط الرئيسية موضع البحث بين النصارى والمسلمين، وتعترف بقوة تأكيد المسلمين على وحدانية الله. وقد تكون تلك (المناظرة) في حد ذاتها مقحمة على النص بطبيعة الحال. فإن كانت كذلك فهي تأتي في فترة مبكرة جداً، يصور وجودها في هذه الرواية الخيالية الطريقة التي يمكن بها لتياري الوهم والملاحظة أن يمضيا معاً جنباً إلى جنب.

ويقع تقدير مشابه للمعتقدات الإسلامية في مصدر آخر في نفس التاريخ تقريباً. إذ كتب (أوتو الفرايسيني) Otto Of Freising بين عامي ١١٤٣ - ١١٤٦م، في جزء من «تاريخه» منتقداً القصة الشائعة عن استشهاد (ثيمو) Thiemo رئيس أساقفة (سالزبورغ) Salzburg

---

(١) Turpin أسقف رايم Reims وهو أحد شيوخ شارلمان. وهو نفسه تلبين Tulpin قسيس سانت دنيس وأسقف رايم (نهاية القرن الثامن). وقد ظل يعتبر مؤلف القصة الأسطورية Historia Karoli Magniet Rotholandi (Roland) الذي ألف حوالي منتصف القرن الثاني عشر في محاولة الكنيسة كسب معركتها لتنصير المجتمع واستيعاب الحس القومي بتمجيد شارلمان.

في سنة ١١٠١م. والذي قيل إنه سقط شهيداً لأنه دمر تماثيل المسلمين في القاهرة. لكن (أوتو) علق على ذلك بأنه أمر بعيد الاحتمال إذ إنه «من المعروف أن جميع المسلمين يعبدون إلهًا واحدًا، ويقبلون شريعة العهد القديم، ويختتنون، ولا يقدحون في المسيح أو حوارييه. والشيء الوحيد الذي يبعدهم عن الخلاص هو إنكارهم ألوهية يسوع المسيح أو بنوته لله وإكبارهم محمد (المضل)[1] على أنه نبي عظيم لله الأعلى». وهكذا أخذت الآراء المعقولة عن طبيعة الإسلام في الانتشار في منتصف القرن الثاني عشر، وصار في إمكاننا أن نراها وقد عبر عنها ـ عرضًا وتخصيصًا ـ مؤلفون في بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإسبانيا.

ويحدث دائمًا أن تأتي الخطوة الأولى في أي اتجاه جديد ـ بالرغم من تأخرها ـ في النهاية بسهولة مذهلة. لكن الخطوات الثانية والثالثة تواجه عادة صعوبات غير متوقعة، والأمر ينطبق على حالتنا هذه. فقد نشأت عادة البحث المستقل في غربي أوربا في أوائل القرن الثاني عشر، وكشفت عن ذاتها في مثل هذه المأثورات التي تحمل تقديرًا صادقًا للإسلام. لكن شيئًا من التدقيق بدأ بعد ذلك، فإن إصدار حكم معقول مبني على حقائق في متناول اليد شيء والبحث عن معلومات جديدة، لمجرد كونها معلومات، أو من أجل بعض البحوث في المستقبل، شيء آخر تمامًا. لقد كان من الواضح جدًا لنا أن الخطوة الثانية ـ عندما بلغت الأمور النقطة التي رأينا فيها من ذكرت من المؤلفين ـ هي وجوب الحصول على نصوص صحيحة لتوسيع الشق الذي فتح في الستارة المسدلة. وينبغي أن تظل مسألة يشرف ذكرها على الدوام في تاريخ مدينة

---

(١) هكذا يقولون تعصبًا. ألا ساء ما يقولون ويتخرصون. وما كان محمد مضلًا وما عرف عنه يومًا الكذب أو الخديعة بل عرف منذ صباه بالصادق الأمين. (د).

(كلني) Cluny أن هذه الخطوة اتخذت بسرعة فائقة في مبادرة (بيتر المحترم) Peter the Venerable ، كاهن (كلني) . فترجمة القرآن التي قام بها على نفقته العالم الإنجليزي (روبرت الكيتوني)Robert of Ketton الذي أكملها في يوليو من عام ١١٤٣م. تعتبر علماً في طريق الدراسات الإسلامية . فلأول مرة أصبحت بيد الغرب أداة دراسة جادة للإسلام بهذه الترجمة . وقد أدى ظهورها إلى أن تنتهي الفترة القصيرة الأولى من التقدير الموضوعي [للإسلام] نهاية لائقة ولكنها نهاية قبل أن تكون بداية . ذلك لأن دراسة الإسلام دراسة جادة لم تكن أبداً الموضوع الذي التزم به معاصرو (بيتر المحترم) أو خلفاؤه المباشرون .

وليس من العسير أن نفهم لماذا وجب أن يكون الأمر كذلك . ففي النصف الثاني من القرن الثاني عشر انهمكت أوربا في عديد من الهرطقات في الداخل ، وعادت لتصاب في الخارج بنكسة متعمدة فيما يتعلق بالإسلام . فمع نهاية القرن تحطمت الآمال العريضة المعقودة على الحملة الصليبية الأولى بسبب سلسلة متتالية من النكسات العسكرية ، وبذلك لم تتح الظروف أي أساس مأمول لدراسة الإسلام .

وكان (بيتر المحترم) يدرك تمام الإدراك أن اهتمامه بترجمة القرآن وبحثه للعقائد الدينية الإسلامية لم تكن لتلقى قبولاً ، فحاول الحصول على مساندة (برنارد الكليرفاوي Bernard of Clairvaux لكنه لم يوفق . ثم حاول أن يسوغ مبادرته تلك في إطار المصالح النصرانية البعيدة المدى ، لكن التجاوب الذي صادفه كان ضئيلاً . وهو - كسلفه اليوناني (يحيى الدمشقي) Johan of Damasceus الذي ابتدأ عمله يعرف في الغرب آنذاك - رأى أن الإسلام هرطقة نصرانية ، بل آخر هرطقة وأكبرها ، والوحيدة التي لم يرد عليها بعد . وكان من الضروري في وقت ملأت جوه الهرطقات - فيما ادعى - أن يلقى « مجتمع

الهرطقات، هذا جوابًا مناسبًا ـ إن لم يكن بحافز من خطرها الجاثم فعلى الأقل بدافع من تهديدها الداهم:

«إذا كان هذا العمل يبدو من النوافل الزائدة، لأن العدو ليس عرضة للهجوم بمثل هذا السلاح، فإني أرد بأن في (جمهورية الملك الكبير) أشياء بعضها للدفاع وبعضها للزينة وبعضها لكليهما معًا. إن (سليمان المسالم) صنع الأسلحة للدفاع، ولو أنها لم تكن ضرورية في زمانه، وداود صنع الزينات للهيكل، ولو أنه لم تكن هناك وسائل لاستعمالها في عصره[1]... وكذلك الحال مع هذا العمل. فإذا لم يكن بالإمكان تنصير المسلمين به، فمن حق العالم على الأقل أن يساند إخوانه الضعفاء في الكنيسة الذين يسهل افتضاحهم بأشياء صغيرة».

كان هذا هو عذر الكاهن (بيتر) لإخوانه النصارى. كان يشحذ الأسلحة في مواجهة الهرطقة. ولم تكن فكرة أن الهرطقة الإسلامية ـ بالنسبة لرجل وضع في اعتباره تخريب المانوية في الكنيسة الغربية ـ ولم تكن فكرة أن الهرطقة الإسلامية قد تأخذ سبيلها إلى الكنيسة هي الأخرى، بعيدة كما تبدو الآن. لكن الواقع أنه لم يكن لهرطقة محمد ـ إذا كانت هرطقة ـ أدنى حظ من الرواج في أوربا. وعلى الحدود المشتركة، حيث التقى الدينان، كان هناك ردة من كلا الجانبين. لكن هذا لم يكن كافيًا أبدًا لإثارة الإحساس لدى الحافظين في البلاد النصرانية اللاتينية. ومن هنا فإن اقتراح كاهن (كلني) بضرورة دراسة الإسلام دراسة جادة، من أجل مساعدة الإخوة الضعفاء في الكنيسة، لم ينل قبولاً، لأنه إذا كان للإسلام أن يدرس على الإطلاق فإنما يكون ذلك لأسباب أخرى غير هذا السبب.

---

(١) هذا قلب لما هو معروف من أن داود هو الذي صنع الأسلحة وسليمان صنع الزينات للهيكل.

وبالمثل، فإن رجاءه في ردة المسلمين باستعراض نقاط الضعف في القرآن كان غير ذي جدوى، إذ بقي هدفه هذا مطمورًا في ظلمات اللغة اللاتينية. ولم يسمع الإسلام مطلقًا صوت كاهن (كلني) وهو يشرح:

«أنا لا أهاجمك بالسلاح، مثلما يفعل بعضنا غالبًا، لكن بالكلمات. ليس بالقوة، لكن بالعقل. ليس بالكراهية، لكن بالحب. أنا أحبك، ولأني أحبك فأنا أكتب لك. وأكتب لك لأدعوك إلى الخلاص».

إن محاولات سلوك اتجاه جديد في مناقشة المشكلات ذات الصعوبة الحقيقية لا يمكن أن يقدر لها النجاح إلا إذا ساعدتها الأحداث سلفًا. والجهد الذي كان يبذل في سبيل وضع الإسلام في إطار عقلي كريم فتر بعد عهد (بيتر المحترم)، إذ جاءت أخطار أقوى من تلك التي شد إليها الانتباه. وكان الخطر الذي شعر به معظم المراقبين للإسلام في آخر القرن الثاني عشر ذا صيغة عسكرية، وكان الرد البسيط هو مزيدًا من الجهد العسكري. وقد أبان وجهة النظر هذه الكثيرون من الشراح البلغاء، وكان أول من برز من بينهم القس (يواكيم الفيوري) Joachim of Fiore. ولم يكن (يواكيم) هذا رجلاً معقولاً جدًا، وإن كان أحد الشخصيات المتنبئة الأصيلة في العصور الوسطى الذين ادعوا، بشيء من الثقة، رؤية ما يجري تحت سطح الأحداث والتعمق في معانيها الباطنة. وعندما كان الملك (رتشارد الأول) Richard I في طريقه إلى الأراضي المقدسة في سنة ١١٩١م. قابل (يواكيم) في (مسينا) Messina فلخص له رأيًا في التاريخ أعاد به إلى الأذهان تلك الرؤى الإلهامية عن شهداء الإسبان في القرن التاسع. وكانت نهاية العالم بالنسبة إليه - كما هي بالنسبة إليهم أيضًا - وشيكة الوقوع، وكانت سبل المسيح الدجال الرئيسية بالنسبة إليه أيضًا هم العرب المسلمين. فقد رأى قوة

الإسلام تتجدد على أيدي الموحدين في إسبانيا وصلاح الدين في فلسطين. لكنه أبدى شيئًا من التردد فيما يتعلق بالمستقبل، وقد كان في ذلك كأي عراف للمستقبل عليه أن يتلمس طريقه بقدر من العناية. ويظهر أنه أكد للملك (رتشارد) أنه سيهزم صلاح الدين - وكان مخطئًا في ذلك دون شك. ولعل أهم إضافة قدمها إلى الصورة الإلهامية هو تأكيده أن المسيح الدجال كان يعيش في روما وقد قدر له أن ينال كرسي البابوية.

إن نظرة إلى الماضي تمكننا من ملاحظة أن هذه الرؤيا، التي كشف عنها لعصابة مرتابة من الصليبيين الشماليين، تمثل تحولاً مهماً في تأكيد نذر اليوم الآخر. وفي أثناء الضربات الأخيرة التي كان لها أن تقوض كيان العالم النصراني رفع «يواكيم» من قدر دور العرب المسلمين وحط منه في الوقت نفسه. لقد رفع من مكانتهم بجعلهم آخر النقم الثلاث على الكنيسة قبل الضربة الأخيرة، وحط من قدرهم حين جعلهم مجرد توطئة لعدو داخلي أكبر للمسيح في قلب العالم النصراني. وهذا التصور للأمور الذي تبدو فيه النصرانية مشدودة في بؤرة الرذيلة بين إسلام ناهض وبابا غير مؤمن، كان يتجدد ظهوره في كثير من الرؤى التالية في العصور الوسطى. وكانت هذه الرؤى محصورة في حيز التأمل الشعبي، وعندما كانت تطفو على السطح تعبيراً عن آراء مطلعة كانت تحظى أحياناً برعاية بعض الأسماء الكبيرة كما سنرى فيما بعد. أما في القرن الثالث عشر - باستثناء واحد مفاجئ في شخص البابا (إنوسنت الثالث) Innocent III - فإنه لم يكن لدور الإسلام الإلهامي أي نفوذ في المجرى الرئيسي في أفكار المسئولين.

لقد جاءت الحادثة التي عملت على تغيير سيماء المشكلة الإسلامية العام أكثر من أي شيء آخر، من مصدر غير متوقع على الإطلاق - وهو ظهور المغول على مسرح التاريخ - فكانت تأثيراتها في المظهر العام

بالنسبة للعالم النصراني الغربي كثيرة ومتنوعة. ونحن نجدهم، في المرتبة الأولى ومنذ لحظة ظهورهم، قد وسعوا الأفق الجغرافي كثيرا وزادوا أضعافًا مضاعفة سكان العالم المعروفين يومذاك. ولم يكن ثمة داع للظن في أن أي شخص ذي أهمية في الغرب ما بين (بيدي) و(بيتر المحترم) قد رأى (عالمًا) وراء الإسلام. فبعد قرون من الجوار تضخمت الصورة إلى درجة أن (بيتر المحترم) قدر أن الإسلام يضم ثلث - وربما نصف - سكان العالم. وقد كانت خطوة نحو الحقيقة، إذ تقلصت المملكة النصرانية بالنسبة لبقية العالم، لكن الإسلام ظل في أساسه ظاهرة مزدهرة. وعلى أية حال فقد اتضح، بانتصاف القرن الثالث عشر، أن هذه الصورة كانت مضللة كالأرقام التي صحبتها، وقد كانت أكثر تفاؤلاً مما ينبغي. فقد كان هناك عشرة «كفار»، أو ربما مائة «كافر»، مقابل كل نصراني واحد. لا أحد يدري بالضبط. وقد بدأ تقدير العدد يزداد بازدياد المعرفة.

والنتيجة الوحيدة لهذا هي جعل الحرب الصليبية تبدو مستحيلة تمامًا، أو هي في حاجة إلى تقييم فعال لأهدافها وأساليبها. أما بالنسبة لبقية العصور الوسطى فقد انقسم العالم الغربي إلى هذين المعسكرين: يقول أحدهما بأن لا صليبية على الإطلاق، ويدعو الآخر إلى صليبية أفضل وأكثر استعدادًا. والشيء الوحيد الذي لم يكن له مجال هو الارتجال المرح والتخطيط القصير النظر الذي ساد في الماضي.

وفضلاً عن ذلك فإنه كان على أكثر المؤيدين للحملات الصليبية تعصبًا أن يتجهوا بتفكيرهم إلى المحتويات العقلية للعقيدة الإسلامية ومحاولة دحضها، إما لإضعاف إرادة المقاومة في العدو أو أن يسقط في يده، وإما لشد الأوتار الواهنة في الغرب ببث إيمان أكبر في جهده العسكري. بل وأكثر من هذا أن عهد لمن كانوا لا يعطفون على الحروب الصليبية بتجربة الفهم والدحض هذه.

وكان عدد غير المؤمنين، بالنسبة للعقول الغربية، قد نما بصورة تنذر بالخطر خلال القرن الثالث عشر، على الرغم من رجحان كفة الأرباح على الخسائر في بعض النواحي. فنرى في المقام الأول أنه بالرغم من أن معظم الظاهرين الجدد على مسرح الأحداث ربما كانوا غير مؤمنين فإنهم كانوا على الأقل ـ غير مسلمين. ومهما كانت رهبة المغول العسكرية فإنهم سرعان ما تبين تخلفهم الفكري. وبذلك برز موقف جديد غاية في التعقيد. وقد أثار المغول مخاوف شديدة، لكن تبين، بحكم وضعهم الجغرافي، أن عدوهم الأول لم يكن النصرانية بل الإسلام. ولذلك أمل الغرب في أن يصبح هذا العامل الجغرافي، بشيء من حسن السياسة، رصيداً هائلاً لصالحه.

وهنا تجلى عاملان آخران. فأولى النتائج المبدئية لهذا اللقاء بين أوربا وآسيا هو ظهور قدر لا ريب فيه من الاتفاق بين النصرانية والإسلام. وقد رأينا بالطبع كيف أدرك هذا أفراد قلائل في أوائل القرن الثاني عشر، لكن لم يتيسر لأحد ـ في ظروف ذاك القرن ـ أن يحسب نقاط الاتفاق هذه ذات شأن خاص. أما النتيجة الثانية للاتصال بالمغول فهي الكشف عن أعداد كبيرة من النصارى البدائيين الذي لم يعرفهم الغرب من قبل قط. وقد انتشرت الحقائق والأوهام عن هؤلاء في القرن الثالث عشر انتشاراً واسعاً، حتى أثرت في تغيير فكرة الغرب عما يدور في العالم الخارجي بشكل عجيب.

لذلك فإن هذا الوضع ـ حسب تطوره خلال القرن الثالث عشر ـ جاء بعدد محير من بواعث الخوف والرجاء ذات طبيعة جديدة. أما عن الكيفية التي أثرت بها في الحياة العملية فهي ما سنقوم به في بقية هذا الفصل.

ونظراً لأن اهتمامنا لم يكن مركزاً في المحل الأول على الأحداث ذاتها وإنما على آثارنا، وعلى ما يمكننا تسميته باختصار «صور العالم في

أذهان الملاحظين الغربيين، فإنه يحق لنا أن نعالج الموقف، الذي أوجزته فيما سبق، بإسهاب أكبر، وأن نفرد بضع لحظات تميزت بصور ذهنية واضحة. وسأخصص هذه اللحظات في التسلسل التاريخي التالي حسب السنوات الميلادية: ١٢٢١، ١٢٥٤، ١٢٦٨ ثم ١٢٨٣. وفي اللحظة التي نبلغ فيها سنة ١٢٨٣م. نكون قد وصلنا تقريبًا حدود «فترة الأمل» إن لم تكن «فترة التعقل».

الحملة الصليبية الخامسة:

الزمان هو تاريخ الحملة الصليبية الخامسة. أما المكان فهو دمياط على نهاية فرع النيل الشرقي. كانت هذه الحملة الصليبية مهملة إذا ما وازنا بينها وبين غيرها من الحملات لأنها لم تكن ذات نتيجة عملية على أي شكل من الأشكال. لكنها من الناحية العقلية والعاطفية لم تخل من أهمية لأسباب عديدة، فهي الحملة الصليبية الوحيدة التي وجهتها البابوية بتأثير قاصد رسولي ساقها دون رحمة إلى أقصى غايتها المحتومة. وكانت بالتقريب نقطة التحول في التاريخ الأوربي، ثم صارت بعد ذلك فجأة تمثل إحدى الانهيارات الكبرى في التاريخ. ففي ربيع عام ١٢٢١م كان الأمر كله مشحونًا بالأمل. إذ كتب المبعوث البابوي في هذا العام تقريرًا إلى مولاه، وفي ١٣ مارس أبلغ البابا فحوى هذا التقرير إلى رئيس أساقفة (تريبه) Trier. وفيما يلي خلاصة لهذه الرسالة البابوية:

«لقد بدأ الله يحكم قضيته علانية، عالمًا بما يعانيه شعبه من آلام كل يوم وبصرخات أولئك الذين يدعونه. ولعلمكم فإن أخانا المبجل (بلاجيوس) Pelagius رئيس أساقفة (ألبانو) Albano مبعوث السدة البابوية، قد أخبرنا بأن الملك داود - الذي يطلق عليه العامة (بريستر جون) Prester John - وهو كاثوليكي يخشى الله، قد دخل فارس بجيش

قوي وأنه هزم سلطان فارس في معركة ضارية وتوغل مسيرة عشرين يوماً في مملكته واحتلها. وقد وقع في قبضته الكثير من المدن والقلاع. وجيشه الآن على مسيرة عشرة أيام من بغداد - وهي مدينة كبيرة مشهورة ومقر الخليفة الذي يعتبره المسلمون بطريقهم وأسقفهم الأعظم[1].

لقد حمل الخوف من هذه الحوادث سلطان حلب، أخا سلطان دمشق والقاهرة، على أن يوجه أسلحته التي كان يستعد بها لمهاجمة الجيش النصراني في دمياط ضد هذا الملك. بالإضافة إلى ذلك فإن مبعوثنا أرسل رسولاً إلى الجورجيين[2] - وهم أنفسهم كاثوليك ومسلحون بقوة - يسألهم ويلتمس منهم أن يشنوا الحرب على المسلمين من طرفهم. لذلك فإننا نأمل - إذا حصل جيشنا في دمياط على العون الذي ينشده خلال هذا الصيف - أن يستطيع، بعون الله، أن يحتل أرض مصر بسهولة في الوقت الذي تنصرف فيه قوات المسلمين التي تجمعت من كل الأنحاء للدفاع عنها إلى الدفاع عن حدود بلادها».

هنا أول تأثير للمغول على مركز التفكير في البلاد النصرانية وتباشير الأمل التي ظهرت بظهور أعداد كبيرة من النصارى خارج حدود العالم اليوناني الروماني. لقد ذكر البابا ما كان يفكر فيه أغلب الصليبيين وما كان يكتبه بعضهم في رسائله إلى الوطن. وقد عاشت إحدى هذه الرسائل لتعيد ما ذكره البابا أكثر تفصيلاً:

«الملك داود... حوالي أربعمائة ألف رجل بما فيهم مائة واثنان وثلاثون ألفاً من الفرسان... فارس اكتسحت... الاستيلاء على بغداد متوقع حالاً».

وباختصار فإن الغرب كان على وشك الانعتاق من خوفه من الإسلام

---

(١) ليس في الإسلام هذا النظام الكهنوتي ذو السلم المتعدد الدرجات، والخليفة يجمع بين السلطة الدينية والدنيوية.

(٢) نسبة إلى أهل جورجيا في بلاد القوقاز.

عن طريق جيش نصراني كبير يزحف من الشرق الأقصى. لقد آن الأوان للقيام بعمل متفق عليه بين نصارى الشرق والغرب، الذين طال أمد انقسامهم، لسحق عدوهم المشترك.

إن الكثير من هذا كان ضرباً من الوهم، لكنه لم يكن وهماً محضاً. صحيح أن (الملك داود) صار فيما بعد (جنكيزخان)، وأنه توفي قبل أن يحتل بغداد، وأن فرسانه النصارى كانوا نسج خيال، وأن المغول كانوا يبعثون الرعدة في أوصال الرجال الهادئين في الأديرة الغربية طوال السنوات العديدة التالية. لكن عناصر هذا الوهم الرئيسية عرفت هي ذاتها أخيراً على أنها حقائق تاريخية في دقة مدهشة. لقد سقطت بغداد في النهاية في يد المغول. وإذا لم يكن النصارى الشرقيون فرساناً فإنهم كانوا على الأقل كثيري العدد. وإذا لم يكن في الإمكان الاعتماد على نصارى جورجيا، أو لم يكونوا كاثوليكاً، إلا أنهم كانوا حقيقة واقعة على الأقل.

وليام الريبرويكي WILLIAM of REBROEK:

قبل سقوط بغداد نهائياً في سنة ١٢٥٨م. نأتي إلى القسم الثاني من معالمنا التاريخية، وهو أكثر واقعية من أحلام سنة ١٢٢١م. التاريخ هو ٣٠ مايو سنة ١٢٥٤م. والمكان يقع في المدينة المفقودة اليوم (كاراكوروم)[1] Karakorum، فيما يدعى في الوقت الحاضر (منغوليا) بالقرب من حدود الاتحاد السوفيتي. لقد قدم هذا الزمان والمكان مشهد أول مناظرة عالمية في التاريخ الحديث بين ممثلين من الشرق والغرب. وكانت مناسبة هامة يوجب الأساس الممهد لها

---

(١) في المغولية: خاراخورين. عاصمة قديمة شهيرة في الإمبراطورية المغولية، أسست على يد جنكيزخان عام ١٢٢٠م. تقع آثارها في أعلى نهر أرخون في ما يعرف الآن بجمهورية منغولية الشعبية.

تلخيصاً قصيراً: فقبل هذا التاريخ بتسع سنوات أوفد البابا الجنوي (إنوسنت الرابع) Innocent IV (جون بيانو كاربيني) John of Piano Carbini - وهو إيطالي فرانشسكاني - ليوافيه بتقرير عن حالة المغول الذين ينبني على مواقفهم تجاه الغرب الكثير من الأمور. كان ذلك في عام ١٢٤٥م. وبعد أربع سنوات من هذا التاريخ غرقت أولى حملات (لويس التاسع) الصليبية، المأسوف عليها، في مياه النيل التي ابتلعت الحملة الصليبية السابقة في عام ١٢٢١م. وفي ظل هذه الهزيمة أوفد (لويس) القس الفرنسسكاني الفلمنكي، (وليام الريبرويكي) William of Rebroek، في بعثة تحقيق أخرى إلى المغول، فوصل عاصمتهم في مايو عام ١٢٥٤م. وهناك عقد الخان الأعظم المناظرة التي ألمحنا إليها. وقد اشترك في هذه المناظرة أربع مجموعات من البشر. تحدث (وليام الريبرويكي) نيابة عن اللاتين بواجهه ممثلو الأديان الثلاثة الكبرى في آسيا: النصرانية النسطورية، والبوذية، والإسلام. واستغرقت المناظرة اليوم كله. وسنقدم فيما يلي خلاصة لتطورات هذه المناظرة، ثم نحاول بعدها أن نبين بعض الفوائد التي يمكن استخلاصها منها - فيما يتصل بتأثيرها في العلاقات بين الإسلام والنصرانية.

كانت المشكلة الأولى هي إدارة المناظرة. فقد كان (وليام) في موقف ضعيف من جهة لأنه لم يكن يستطيع الحديث إلا عن طريق مترجم، وهو من جهة أخرى كان ذا ميزة كونه القادم الجديد ومركز الاهتمام الرئيسي. وبغض النظر عن الصعوبة اللغوية فقد كانت أمامه مشكلتان: أولاهما هي وجوب التأكد من أنه يصارع الأعداء الحقيقيين بترتيب سليم، وثانيتهما العمل على أن تطرح أولاً الأسئلة التي تكون له فيها قدم راسخة. وقد استطاع أن يعالج هاتين المشكلتين بطريقة مناسبة، إذ بدأ بطرح قضية مشتركة مع النساطرة، فكانت هذه حركة

أولية بارعة في المناورة. وكان من المهم كذلك أنه هو الذي يدير دفة الجدل - وليس حلفاؤه - لأنه لم تكن لدى النساطرة - كما لاحظ - أي فكرة عن كيفية إثبات أي شيء. فقد تبين أن طريقتهم الوحيدة في الجدال هي الاستشهاد بالكتاب المقدس. وكما أنبأهم - وهو محق في ذلك - كانت تلك طريقة عقيمة لأنه «عندما تستشهدون بإحدى آيات الكتاب المقدس يرد أعداؤنا بأخرى». حتى أقنع حلفاءه أخيراً بأنه يجب أن يكون أول المتحدثين محتجاً بأن ضعفه اللغوي يستوجب ذلك. «فإذا غلبت فإنكم قادرون على تولي النقاش. أما إن غلبتم أنتم فلن تكون هناك فرصة للاستماع إلي». وكسب بذلك النقطة الأولى.

وكانت المعضلة التالية هي تقرير من سيؤخذ في الجولة الأولى، البوذيون أم المسلمون؟ ففضل النساطرة هجوماً سريعاً على المسلمين. لكنهم أظهروا هنا - مرة أخرى - سذاجتهم الجدلية. فقد كان الأمر، كما بين (وليام)، أن المسلمين والنصارى اتفقوا على النقاط الأساسية لطبيعة ووجود إله واحد - وبذلك يبدأون كحلفاء ضد البوذيين. أما إذا بدأوا بصراع ضد المسلمين فلن يكون لهم حلفاء قط. ولقد استطاع أن يشق سبيله في هذه النقطة بشيء من الصعوبة أيضاً. إذ أراد البوذيون أن يبدأوا بمناقشة هل العالم مخلوق ومصير الأرواح بعد الموت، فأجاب (وليام) الفطن بقوله: «صديقي! هذه ليست بداية صحيحة، لأن كل شيء من عند الله. إنه مصدر وأصل كل شيء. لذلك يجب أن نتكلم أولاً عن الله الذي تختلفون معنا فيه». وحولت هذه المشكلة المتعلقة بالإجراء إلى الحكمين الذين عينهم (الخان الأعظم) لإدارة المناظرة، فوافقوا على أن رأي (وليام) كان معقولاً. فشق سبيله هنا أيضاً، ثم قضى شطراً كبيراً من اليوم في مناقشة وجهات النظر المتنافسة عن الله، والتي اتفق فيها اللاتين والنساطرة والمسلمون جميعاً ضد البوذيين.

وأرى أنك لست في حاجة إلى سماع الحجج التي أوردت لتأييد

التوحيد من طرف ومساندة تعدد الآلهة من طرف آخر، كما أننا لسنا في حاجة إلى القول بأنه كان لحجج التوحيد ـ حسب رواية (وليام) على الأقل ـ اليوم الأفضل. وليس ذلك بغريب، لأنه كان قادراً على الكلام بسند ودقة تراث فلسفي عريض، أما خصومه فكانوا مقيدين بسلسلة من الأرباب في السماء والأرباب على الأرض، ولم يكونوا بمستطيعين تقديم جواب شاف للسؤال المتعلق بالقدرة الإلهية، وأخيراً قيدوا أنفسهم بوجهة النظر القائلة أن لا إله قادر. وهنا كسب (وليام) تفوقاً لذيذاً إثر ضحكة عالية أطلقها المسلمون من بين المشاهدين.

وفي هذه الأثناء بدأ النساطرة يشعرون بالقلق، لأنهم كانوا يرغبون في أن تكون لهم جولتهم مع المسلمين. فتنحى (وليام) وسمح لهم بالكلام. فكان نصر جديد في انتظاره وانتظار أصدقائه حين امتنع المسلمون عن المحاجة قائلين: «نحن نوافق على أن شريعتكم حق وأن الإنجيل حق، ولا رغبة لدينا في حجاجكم». واعترفوا بأنهم كانوا يدعون في صلاتهم بأن يموتوا نصارى[1].

وهكذا شهدت هذه المناظرة نهايتها حين التقى المسلمون والنصارى معاً في انتصار مشترك على البوذيين، وشرب الجميع حتى ارتووا[2].

---

(١) لا شك أن هذا الكلام مصنوع وليس حقيقياً، فالخلاف بين المسلمين والنصارى واضح: المسلمون يؤمنون بإله واحد ولكن النصارى يقولون بالتثليث، ونحن نختلف معهم على طبيعة المسيح فهم يقولون إنه إله، أو إنه ابن الله ونحن نقول إنه نبي الله ونختلف معهم في مصيره فيعتقدون أنه صلب ونحن نعتقد أنه لم يصلب (ولكن شبه لهم). وليس الإنجيل الذي بين أيديهم هو ما أنزله الله فقد حرفوا الكلم عن مواضعه ورأينا من الإنجيل أربع نسخ على الأقل. ولا يمكن أن يتمنى مسلم أن يموت مسيحياً إلا في خيال الرهبان. (د).

(٢) عادة الشرب بعد الظفر عادة نصرانية والخمر حرام عند المسلمين، ولا جدال في أن الذين اشتركوا في هذه المناظرة من المسلمين كانوا من رجال الدين أو المتفقهين فيه. ومن المؤكد أنهم لم يشربوا أو يشاركوا النصارى في شربهم.

ونحن لا نستطيع، بالطبع، الاطمئنان إلى أن (وليام الربروبكي) ترك لنا رواية غير متحيزة عن هذه المناظرة. غير أن خطوطها العامة تظهر موثوقًا بها وفي نطاق المعقول. لكن الأهم من هذا كله أن القصة عادت إلى الغرب. فأي انطباع تركته حينئذ؟ وأي انطباع تحدثه الآن؟

لقد برهنت، في المقام الأول، على التفوق الجدلي عند اللاتين. فإن ذلك الاستعداد المنطقي الطويل الذي كانت مدارس الغرب تشق طريقها عبره لمائة عام أو تزيد آتى أُكُله في النهاية. عرف (وليام) كيف يجادل في المسائل الدينية، أما معارضوه فلم يعرفوا. كذلك فإن هذه المناظرة شجعت وجهة النظر القائلة بأن الغلبة في الحجاج يمكن إحرازها بيسر، كما بينت أنه ينبغي أن تسند الجدل معرفة باللغات إذا أريد له أن يكون ذا أثر في مستوى الشئون العالمية. وبالإضافة إلى ما تقدم فقد ألقت قدراً كبيراً من الضوء على أصدقاء وأعداء النصرانية معاً، فساعدت على تشكيل صورة عن النساطرة قوماً بسطاء لا حيلة لهم ولا خبرة في الجدال، في حاجة إلى من يأخذ بأيديهم ويقودهم إلى الطريق السوي. أما البوذيون فكانوا قوماً لديهم قليل جداً مما يقولونه عن أنفسهم ويمكن الرد عليه بيسر. أما المسلمون فكانوا قوماً قريبين من النصرانية وحلفاء محتملين فكرياً إن لم يكن عسكرياً.

إن يوميات (وليام الربروبكي) لم تقرأ على نطاق واسع، وإذا أردنا أن نحكم عليها من المخطوطات الموجودة الآن فسيتضح لنا أنها لم تقرأ إلا في بريطانيا فحسب. وليس من قبيل الوهم ربط انتشارها الواسع في بريطانيا برجل إنجليزي عرف بأنه التقى المؤلف وناقش معه شئون العالم الخارجي ـ ذلك هو (روجر بيكون) Roger Bacon الذي يقودنا إلى المشهد الثالث في سلسلتنا هذه وإلى رسائله التي كتبها للبابا (كليمنت الرابع) Clement IV في المدة ما بين عام ١٢٦٦ ـ ١٢٦٨ للميلاد.

روجر بيكون ROGER BACON :

بالرغم من شهرة (روجر بيكون) الواسعة فإن حياته الخاصة غامضة للغاية . وأعماله المعروفة والمنشورة تملأ مجلدات إلا أنها لم تدرس بعد دراسة كافية . أما قيمتها فلن يكون هناك اتفاق في الغالب على تقديرها ، فهو رجل يولع في مدحه على ما لم يأته ويولع في ذمه على ما قدم . ونحن نرى من خلال استعراض زاوية صغيرة من تفكيره رجلاً متزناً ، تشبه آراؤه آراء رجل الدولة ، فقد كان أحسن معرفة من أغلب معاصريه ، يشاركهم في آمالهم ومخاوفهم ، ويعمل ضمن الإطار الموروث للمدارس الكبرى في باريس وأكسفورد .

كان اتصال (روجر بيكون) بالإسلام أولاً وقبل كل شيء اتصالاً فلسفياً . ثم دخل مرحلة النضج في الفترة التي بدأ فيها التأثير الفلسفي للكتاب المسلمين على اللاهوتيين الغربيين ليعلن عن وجوده للمرة الأولى بأسلوب قوي حقاً . وسنبعد كثيراً جداً عن خط سير بحثنا لو أطلنا النظر في هذا الموضوع الجذاب ، الذي يمكن فيه ملاحظة ذلك التغير الجذري ، مقارنة بالوضع الذي تحدثنا عنه في عصر (جربرت) و(ابن سينا) . لكن نظراً إلى أن تملك أسلوب فلسفي مشترك كان الرابطة الجديدة الكبرى بين الإسلام والغرب في القرن الثالث عشر ، فقد رأينا كيف أثرت هذه الرابطة في سير المناقشة كثيراً في (كراكورم) ، وإنه لمن الضروري أن نقول بضع كلمات عن الطريقة التي انعكست بها عزلة الغرب الفلسفية في البداية إلى تفتح على الفلسفة الإسلامية فيما بعد .

يرجع ذلك التغير إلى حد كبير إلى عمل مجموعة من المترجمين وقفوا أنفسهم للعمل في طليطلة إبان الربع الثالث من القرن الثاني عشر . وقد قدم هؤلاء الرجال إلى الغرب أعمال كبار الفلاسفة المسلمين أمثال : الكندي والفارابي وابن سينا ، وغيرهم . ومكنوا الغرب - لأول

مرة ولمدى بعيد - من امتلاك تراث الفكر الفلسفي والعلمي اليوناني الذي كان يمثل نفوذًا قويًا في قرون الإسلام الأولى. وفي نهاية القرن الثاني عشر أصبح في الإمكان الحصول على جزء كبير من هذا العمل باللغة اللاتينية. لكن أفكار ومصطلحات هذه الكتابات لم تأخذ طريقها إلى اللاهوت اللاتيني، حتى نهاية سنة ١٢٣٠م تقريبًا، عندما كان (روجر بيكون) في بداية عمله بالجامعة. وكان هذا بالضرورة أصعب غزو لهذه الأفكار والمصطلحات في مستقبلها المظفر. فقد كان مما يبث الفزع في أفئدة اللاهوتيين في الجيل السابق رؤية اسم (ابن سينا) مقتبسًا بجانب اسم (أوغسطين)، لكن هذا ما حدث فعلاً وبسرعة مذهلة. ولا يزال الباحثون المحدثون يصادفون كل يوم آثارًا بليغة لتأثير الكُتّاب المسلمين في لاهوت القرن الثالث عشر. وأصبح معروفًا منذ العمل العظيم (لرينان) أن الرشدية - اللاتينية (وقد كانت تدعى كذلك منذ آخر الأرسطوطاليسيين المسلمين) مدرسة فكرية مشوهة جدًا وعظيمة الانتشار. غير أنه برز إلى دائرة الضوء في أخريات القرن الثالث عشر، في مرحلة أقرب عهدًا من تلك، ما سمي بالمدرسة (السينائية - اللاتينية). والأرجح أن مرحلة مبكرة ومحافظة من الرشدية لا تزال في انتظار الدراسة المكتملة.

إنه من الصعوبة بمكان المبالغة في مدى تغيير هذه التأثيرات من نظرة العلماء الأوربيين في نصف القرن الذي تلا عام ١٢٣٠م. والمثل في هذا الأمر أن يستعمل الاقتصاديون المحدثون من أتباع (ألفريد مارشال) Alfred Marshall و(كينز) Keynes فجأة لغة (كارل ماركس) Karl Marx أو يعبر رجال الدولة الأحرار (الليبراليون) عن ذواتهم باصطلاحات (لينين) Lenin. ولنضرب لك مثلاً لما يعني ذلك عمليًا:

من القواعد العامة في اللاهوت النصراني أن الأرواح الخيرة ستتمتع

بمشاهدة الله مباشرة في الجنة. لذلك فإننا نستطيع أن نتأكد من أن شيئًا قد حدث فعكر صفو اتفاق اللاهوتيين حول هذا الموضوع حين وجدت جامعة باريس في شهر يناير من سنة ١٢٤١م، أنه من الضروري إدانة الرأي المخالف وتأكيد النظرة الموروثة إلى هذا الأمر. وقد ظلت طبيعة هذا التعكير الحقة ومداه فترة من الزمان مادة للنقاش، ولم يتم إلا قريبًا حصر مصدر الاضطراب المحتمل في تأثير (ابن سينا) الذي كان يمضي بخطى حثيثة في عالم الغرب خلال السنوات العشر التي سبقت عام ١٢٤١م. وكان رأي (ابن سينا) أنه لا يمكن معرفة الخالق مباشرة عن طريق أي مخلوق، وتأكيده على فكرة الفصل بين الله والإنسان، إحدى النقاط التي يظهر فيها بجلاء اختلاف التصورات الإسلامية عن التصورات النصرانية. وقد استطاعت هذه الفكرة التي تبناها (ابن سينا) أن تحرز شيئًا من النجاح في الدوائر الأكاديمية الغربية. ثم استثارت هذه الفكرة الجديدة الكثير من الردود، جاء أشدها كتب عام ١٢٥٠م. وكما ينبغي أن نتوقع فإن (الأكويني) أيد الرأي التقليدي المحافظ الأول الذي يقول بأن الأرواح الخيرة ستحظى برؤية الله مباشرة، غير أنه استعمل في إجابته على هذا الخطأ[١] الذي أوحى به المسلمون لغة وعبارة فيلسوف آخر هو (ابن رشد). فإن كان الخطأ خطأ (ابن سينا) فإن الدفاع كان بلسان (ابن رشد). وأمام مشكلة لاهوتية جوهرية كهذه لم يتردد علماء اللاهوت الغربيون في منتصف القرن الثالث عشر - على اختلاف مذاهبهم - في العودة إلى دراسة النظريات التقليدية في ضوء الفلسفة الإسلامية، أو على الأقل في إعادة صياغة النظريات التقليدية بلغة هؤلاء الفلاسفة.

---

(١) الله عند المسلمين ليس له حيز، وهو موجود في كل مكان، ولا يمكن لبشر أن يراه في الدنيا ولا في الآخرة لاستحالة ذلك فكيف يحيط المحدود حيزًا ومعرفة بغير المحدود؟؟. وذلك بعكس تصور النصارى للذات العلية.

إنه من المغري التريث أمام هذه الصورة المثيرة للإعجاب للاهوت النصراني المتأثر في آرائه ولغته بالفلسفة الإسلامية. ولم يكن هذا التأثير المدرسي سوى مظهر واحد من مظاهر نفوذ فكري إسلامي أوسع. فمثلاً يبدو الآن من المؤكد الذي لا شك فيه أن أثراً ترجم إلى الفرنسية واللاتينية من العربية خلال الفترة عن رحلة محمد إلى السموات (المعراج) كان له تأثير - وربما تأثير عميق - في خطة «الكوميديا الإلهية» (لدانتي). فعندما وضع (دانتي) الفيلسوفين المسلمين (ابن سينا) و(ابن رشد) في الليمبوس[1] (Limbo) وكذلك المحارب المسلم (صلاح الدين) على أنهم المحدثون الوحيدون بين حكماء وأبطال العالم الأقدمين إنما كان بذلك يعترف بدين الإسلام على النصرانية، وهو دين فاق أي شيء كان في قدرة (دانتي) التعبير عنه بالكلمات. لكن هذا الاستطراد يبعدنا عن موضوعنا، ولذا وجب أن نعود إلى (روجر بيكون) لنرى كيف عبر عن سعة الأفق العقلي والجغرافي في أيامه.

لقد حقق (بيكون) في السنوات ١٢٦٦ - ١٢٦٨م، أعز أمانيه في استطاعته مخاطبة البابا مباشرة بأفكاره الجريئة التي تدور حول النصرانية وما بلغته حالتها من سوء. وكان (بيكون) رجلاً يتحرق شوقاً دائماً إلى التعبير عن نفسه وكان عنيفاً على نفسه في العمل، فعمل على صب أفكاره في آثار مختلفة الطول وإن كانت تدور كلها تقريباً حول الأساس نفسه. أو بعبارة أخرى فإن الأساس كان واحداً فيها جميعاً، مع كثرة التكرار والإساءة لمعاصريه، واقتراحات الواثق من نفسه بالنسبة للمستقبل. وتعتبر هذه الأعمال من بين أشهر آثار القرون

---

(١) Limbos: الأعراف وهي بين الجنة والنار ويعتقد النصارى أنه مكان الأطفال غير المعمدين، إذ يحرمون دخول الجنة وكذلك مكان الأرواح التي تحرم دخول الجنة لغير ذنب اقترفته.

الوسطى وأكثرها قراءة بلا ريب. ولم تخرج المخطوطة الحقيقية التي أرسلها (بيكون) - محتوية آخر تصحيحاته واستدراكاته وعلامات لجذب الانتباه إلى نقط خاصة - إلى النور إلا أخيراً ومنذ وقت قريب. والأقرب من ذلك عهداً هو طبع القسم الأخير من مؤلفه "Opus Maius" في الفلسفة الخلقية، نقلاً عن المخطوطة الأصلية. ومن هنا نحصل على فكرتنا الكاملة عن أثر الإسلام في (روجر بيكون).

ومن هذا الكتاب نرى معنى أن (بيكون) حصل على ما عز أن يحصل عليه قبل هذا الأوان، أي المقياس الحقيقي لمكانة النصرانية في العالم، إذ يقول: «النصارى قلة، والكفرة يملأون الأرض، لا يجدون من يريهم الحقيقة». وإذا سألنا: لماذا لا يوجد من يريهم الحقيقة؟ يكون الجواب: لأن مقاصد العالم النصراني كانت خاطئة وأداته كانت قاصرة. كانت أهدافه خاطئة لأن الرغبة في السيطرة أفسدتها فخابت مساعي الدعوة إلى النصرانية وفشلت الحروب فشلاً ذريعاً. وحتى لو نجحت فإنها ما كانت لتفيد، أولاً لأنه لن يكون بالإمكان احتلال مثل هذه الأراضي الواسعة. وثانياً لأن الناجين (من الحرب) سيلتهبون حماسة ضد غزاتهم، فيكون من الخطر العيش بين ظهرانيهم ومن المحال تحويلهم إلى النصرانية كما نرى - على حد قوله - في الكثير من بلاد العالم الإسلامي اليوم. فالتبشير إذن هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها توسيع رقعة العالم النصراني. لكننا في هذا نجد قصوراً في نواح ثلاث:

١ - لا أحد يعرف اللغات الضرورية.

٢ - لم تدرس أنواع الكفر وتميز بعد.

٣ - لم تجر أية دراسة للحجج المضادة حتى يمكن دحضها.

إن جزءاً كبيراً من عمل (بيكون) شغل بمختصرات أولية واقتراحات وإثباتات وبعض الحجج المرتبة مبينة الطريقة التي يمكن بها سد ثغرات القصور وإصلاحها. وبنظرة إلى ما فات نرى أنه كان متفائلاً

أكثر مما يجب. وحتى من غير مزايا النظرة الخلقية فإن البابا كان سينظر بعين الشك إلى عرض (بيكون) أن يعلمه ـ أو أيًا سواه ـ اللغة العبرية في ثلاثة أيام، وعلينا أن لا نبالغ في تفاؤل (بيكون)، فقد كان يعني أنه يستطيع تعليم معاني كلمات اللغة العبرية التي استعملها الآباء اللاتين. أما بالنسبة إلى تفاؤله العام فقد شاركه فيه الكثيرون من معاصريه وشجعته الأحداث المعاصرة له.

كان (بيكون) كثير التكرار إلى درجة الملل فيما يتعلق بمسألة تعليم اللغات، لكنه في محاولته تحليل أنماط الكفر المتنوعة، كي يكشف عن الأسباب التي أدت إلى ظهورها والمؤثرات التي حفظت وجودها، فقد كان يتوسع في تأسيس علم جديد. ومن الصواب القول بأن منهجه في التصنيف يبدو الآن شاذًا جدًا، بظنه أن جميع سبل الحياة المحتملة يمكن تقسيمها إلى ستة أنواع طبقًا لغاياتها الأخيرة هي: اللذة، والغنى، والشرف، والقوة، والشهرة، والسعادة في الحياة الآخرة. ويمكن ـ في رأيه ـ تقسيم الأمم طبقًا لاتباعها هذه الغايات: فاللذة للمسلمين، والقوة للتتار، وهلم جرا. بل أكثر من ذلك يمكن تصنيف هذه الأمم بحسب نظام عباداتها ونزعاتها، فيما إذا كان لديها إله واحد، أو آلهة متعددة، أو لا آلهة على الإطلاق، وفيما إذا كان لديها نظام رهبنة وكهنوت أم لا. ثم يأتي تصنيف آخر بالنسبة إلى الكواكب والنجوم وتحت أي منها يكونون أكثر فلاحًا. وكان (بيكون) متأثرًا في هذا التصنيف بكتاب (أرسطوطاليس) عن «السياسة»، إذ قسم (أرسطوطاليس) الدول إلى ستة أنماط بالنسبة إلى دساتيرها وغاياتها. من هنا كان لدى (بيكون) مستند جيد لنظامه، مهما كانت غرابة النتيجة النهائية. ويجب أن نقبل بالتأكيد أنه كان لديه الفكرة الصائبة في محاولة وضع مسح عام لجميع أعداء النصرانية المحتملين.

غير أن مثل هذا المسح يبدو ضئيل القيمة إذا لم يرافقه برنامج

للمواجهة العقلية للأعداء، الذين كشف عنهم البحث. وفي هذه النقطة بالذات يبرز دور الإسلام في تدبير التاريخ العالمي بطريقة جديدة تماماً. ويبدأ (بيكون) بأن يؤكد وجود وسيلتين ليس غير، يمكن بهما إقناع الفرق المختلفة التي حللها، بالحقيقة، إما عن طريق المعجزات أو عن طريق الفلسفة. لكنه لا يوسع مكاناً للمعجزات، وقد استثنى الحرب مسبقاً، وبقيت الفلسفة وحدها. وهنا يكمن بالتأكيد ضعف النصرانية. يقول بيكون: «الفلسفة من اختصاص الكفرة وقد أخذناها عنهم». فدور الكفرة إذن - ولابد أنه كان يفكر بالدرجة الأولى في اليونان ثم في العرب - أن يمدوا النصرانية بالفلسفة التي تحتاج إليها لتفهم نفسها فترتد إليهم هذه الفلسفة وقد ازدادت ثراء بالوحي - وبذلك يوجد عمل متبادل في التاريخ بين العالم النصراني والعالم الخارجي، كل يمد الآخر بما ينقصه. فالفسفة هي «الإعداد الإنجيلي» Pre-poratio Evangelica للعالم الخارجي لأن قوة الفلسفة تتفق مع حكمة الله - إنها خلاصة الحكمة الإلهية منحها الله الإنسان حتى يسمو إلى الحقائق الإلهية».

ستضطلع الفلسفة وحدها بهذا الدور المجيد إذا استطاعت أن تقنع غير المؤمنين (الكفرة) بأنهم مخطئون. وقد تناول (بيكون) أديان العالم الواحد بعد الآخر وضرب الأمثلة على الحجج البالغة التي يمكن في ظنه أن تؤثر فيهم والتي ستقنع الخاصة لا الغوغاء «لأنه يوجد في كل أمة طائفة قادرة مجدة مستعدة للاقتناع العقلي». وهو يعترف بالحاجة إلى المجادلة على أساس مشترك وإلى تنويع هذا الأساس بما يتناسب والعدو الذي يواجهه، ثم يتعمق في الأديان المختلفة حتى يصل إلى الإسلام الذي يعترف بأنه أصعب حالة على الإطلاق. ثم يقدم سلسلة من الحجج المبينة - كما يرى - ضد الإسلام كافية لدحضه. وتطرح هذه الحجج في شكل قضايا منطقية أخذت مقدماتها عن كتاب مسلمين أو

كانت من بنات أفكارهم. ولا أعتقد بأن هذه الحجج كانت تكسب الكثير من المهتدين، ولو أنها لا تعدم شيئًا من القوة بالنسبة للعقل الغربي.

وقد ارتكب (بيكون) خطأ باستخراجه المقدمات المنطقية، دون تمييز من القرآن ـ ومن الفلاسفة المسلمين، الذين لا يمثلون الإسلام، وقد تخيلهم مثل رجال الدين المدرسيين. وهم ربما كانوا، بل في الواقع أنهم كذلك في الأغلب، قد نبذوا من قبل المسلمين المحافظين (السنيين) يومئذ ـ وقد جادل (بيكون) على الإجمال بلسان طلق مسددًا ضرباته في سلسلة من الهجمات السريعة هادفًا إلى إحالة الإسلام إلى كومة من تراب. غير أنه يجب أن لا نقسو في الحكم على اقتراحات طرحت بعد ما يقرب من ألف صفحة من المجادلات والحجج كتبت في عجلة دون تشجيع، وعلى نفقته الخاصة، من أجل خير النصرانية. وكان هذا العمل مثلاً بارزًا لالتقاء الفرصة والغيرة أو الحمية. وهو في تمامه ونظامه وثقته في الحاجة وفي اعترافه بقوة الإسلام الفلسفية إنما يبلغ الذروة في التقاء الأمل والعقل.

ولنتوقف هنيهة لنوضح الفرق بين هذه الصورة التي رسمها (بيكون) للعالم وتلك الصور التي خطها الكُتّاب الذين تحدثنا عنهم من قبل. وأول الاختلاف، بل وأهمه، هو أنه بينما كان المفكرون المتقدمون لا يرون للإسلام باعتباره دينًا إلا دورًا سلبيًا في التاريخ، وكاتجاه منحرف عن الحقيقة، وكتهيئة لحرقة المسيح الدجال، وكجزء من حركة مصيرها إلى الزوال، نجد عند (بيكون) ـ ولم يكن الرجل الوحيد في عصره الذي يري هذا الرأي ـ بعض التصورات عن حركة صاعدة نحو الوحدة والنظام لعب فيها الإسلام دورًا جوهريًا قبل أن يختفي. وقد أهمل كلية الكتاب المقدس كأداة لفهم دور الإسلام في العالم، واعتمد تمامًا على الفلسفة. وهو في معرفته للإسلام اعتمد على

فلاسفة هذا الإسلام وعلى تجارب الرحالة، ولم يعتمد على النتف الضعيفة المعارضة من المعلومات التي اتسم بها الكُتّاب السابقون. وكان الفلاسفة والرحالة مرشدين أقل جدارة بالثقة مما كان يحسب. ولم يكن (بيكون) يعرف أشياء كثيرة، وربما لم يعرف أشياء صحيحة، لكنه حاول أن يعرف، وحاول أن ينظم معرفته تلك.

سنوات الرجاء:

بالرغم من أن (بيكون) غاب عن الأنظار بعد سنة ١٢٦٨م - ولم يكن يظهر إلا مغضوباً عليه أو مسجوناً، فإن المزاج الذي كتب به بدا لبعض الوقت متفقاً مع الوقائع - وظلت تقارير الرحالة في الشرق خلال العشرين عاماً التالية محتفظة بطابع التفاؤل نفسه - فنجد مثلاً (وليام الطرابلسي) William of Tripoli وهو راهب دومينيكاني في عكا يكتب في سنة ١٢٧٣م تقريراً عن الإسلام إلى (أرشيدوق ليج) Archdeacon of Liege يقول فيه: «ولو أن عقائدهم مغلفة بالكثير من الأكاذيب، مزخرفة بالحكايات، إلا أنها بدأت الآن تتكشف عن أنها أقرب إلى العقيدة النصرانية وليست بعيدة عن طريق الخلاص».

وإلى جانب هذا فقد كتب عن تصور عام في قلوب جميع المسلمين أن عقيدة ومذهب محمد، مثل عقيدة ومذهب اليهود، قربتا من نهايتيهما تاركتين المجال لعقيدة المسيح ثابتة دائمة ما بقيت الدنيا. وقد وصل (بيكون) إلى هذه الفكرة من المصادر الأدبية. ونحن نعلم بوجود قول منسوب على المستوى الشعبي إلى محمد[١] يقرر أن دينه سيبقى ما بقيت دولة الخلافة العباسية فحسب. لكن هذه الخلافة انهارت بسقوط بغداد عام ١٢٥٨م، فلو كان في هذه النبوءة شيء من الصحة

---

(١) هذه كلها أكاذيب انتحلها أعداء الإسلام، ولم يرد في الصحيح من أقوال الرسول ﷺ شيء من هذا. (د).

فإن نهاية الإسلام وشيكة الوقوع. وقد أثبت (وليم الطرابلسي) في تقريره نقداً لمحمد كما لاحظ إدراك المسلمين أنه ليس لديهم لاهوت مقنن[1]، وقال إنه عمد بنفسه أكثر من ألف مسلم. وأي امرئ يقرأ هذا التقرير يجزم بأن الزرع استوى وتهيأ للحصاد.

وفي الوقت الذي كان فيه (وليم الطرابلسي) يقرر أن الإسلام كان على شفا حفرة كانت هناك بوادر من الأمل في أن نصارى الشرق على استعداد للاتحاد مع إخوانهم الغربيين. وفي سنة ١٢٨٣م كتب الرحالة الألماني (بيركارد الصهيوني) Burcharad of Mount Syon تقريراً عن تجاربه ذكر فيه أنه شاهد الكثير من المدن اللاتينية ماتزال مزدهرة على طول الساحل السوري كما لاحظ المجتمعات النصرانية المتنوعة في داخل تلك البلاد. وقد كتب متحمساً يقول:

«من الملاحظ ـ وإنها لحقيقة بسيطة واضحة رغم أن بعض من يتحدثون عن هذه الأمور التي لم يشهدوها قط يقولون بعكسها ـ أن الشرق كله من البحر الأبيض إلى الهند والحبشة يعترف أهله ويدعون باسم المسيح، فيما عدا المسلمين وبعض الأتراك الذين يعيشون في (كابادوكيا) Cappadocia. إنني أقرر بدقة ما رأيته بنفسي وسمعته من الآخرين المطلعين على الحقائق أنك ستجد في كل مكان ومملكة ـ فيما عدا مصر والجزيرة العربية التي يعيش فيها معظم العرب المسلمين وآخرون من أتباع محمد ـ ستجد دائماً ثلاثين نصرانياً أو أكثر مقابل كل عربي مسلم. كل هؤلاء النصارى فيما وراء البحار ينتمون إلى بلاد شرقية ذات خبرة قليلة بالحروب. وهكذا إذا ما هاجمها العرب المسلمون أو التتار أو آخرون غيرهم أصبحت خاضعة لهم واشترت منهم

(١) وهذا دليل الجهل فليس ثمة شريعة سماوية مفصلة ومقننة مثل الشريعة الإسلامية في مختلف المجالات: العبادات والمعاملات والعقيدة، واعتقادهم بالتعميد وأنه جزء من شريعتهم دليل على تمسكهم بالشكليات (د).

السلام والسكينة بدفع الجزية وينصب العرب المسلمون أو الآخرون الذين يحكمونهم حكاما وجباة في أراضيهم - ومن هنا يحدث أن تدعى المملكة باسم العرب المسلمين وإن كان القسم الكبير من سكانها نصارى فيما عدا الحكام وجباة الضرائب وأتباعهم. لقد رأيت ذلك بنفسي في قليقلة Cilicia وبدرجة أقل في (أرمينيا) Armenia الخاضعة لسيادة التتار. فقد مكثت مع ملك أرمينيا مدة ثلاثة أسابيع حيث رأيت معهم بعض التتار، في حين الآخرين جميعًا ممن ينتمون إلى بيت الملك كانوا من النصارى الذين يبلغ عددهم المائتين - رأيتهم يتوافدون على الكنيسة، يسمعون القداس، ويركعون مصلين في خشوع. وأكثر من هذا فأنى ذهبت أظهروا لي عظيم التوقير والاحترام، رافعين قبعاتهم، منحنين في خشوع محيين لنا، قائمين من أجلنا.

إن كثيرًا من الناس ينزعجون عندما يسمعون بأن بلدان ما وراء البحار هذه يسكنها النساطرة واليعاقبة والموارنة والجورجيون، وآخرون يستمدون أسماءهم من المبتدعين الذين أدانتهم الكنيسة، وهؤلاء القوم يعتقدون كذلك أن زملاءهم منحرفون ويتبعون الأخطاء نفسها التي استمدوا منها أسماءهم. لكن هذا غير صحيح البتة - لا سمح الله بأن يكون - فهم أناس بسطاء ذوو سلوك تقي. وأنا لا أنكر أن هناك بعض الحمقى من بينهم مثلما لا تعدم الكنيسة الرومانية حمقى في داخلها. ولكن لكل الأمم المذكورة، وأخرى غيرها تبلغ من الكثرة حدًا يتعذر معه ذكرها جميعًا، رؤساء أساقفة، وأساقفة، ومطارنة، ورهبان. إنهم مثلنا تمامًا ويدعون بالأسماء نفسها باستثناء النساطرة فإن رئيس أساقفتهم يدعى «اياسليك» Iaselick وقد علمت أن سلطته التشريعية أكثر نفوذًا في الشرق من سلطة الكنيسة الغربية بأكملها».

هذه بحق صورة سارة للعالم الكبير في آسيا: فالنصارى كثيرو العدد، طيبو القلب، كلهم تقريبًا يدينون بالكاثوليكية - في حين أن

الإسلام ضعيف ويسير الانتشار، وقد أدى عمله منتظراً في خوف عميق نهايته المتوقعة. أما بالنسبة للمغول فإنهم ـ ولمدة خمسين عاماً ـ سببوا للغرب نوبات متبادلة من الرعب والرجاء. لكن مكانهم اتضح الآن، فقد أصبحوا فجأة السند الذي يستمد منه النصارى الناءون وجودهم، وصاروا أداة لهدم الإسلام نهائياً. وها قد رأينا شهادة رجال من أجناس متعددة من غربي أوربا. فبيكون إنجليزي، ووليام الربروبكي هولندي، ووليام الطرابلسي سوري، وبركارد ألماني، وهم كلهم أجمعوا على هذا الرأي. إن فترة قصيرة من الزمن يبلغ طولها حوالي ثلاثين عاماً، من سنة ١٢٦٠م إلى سنة ١٢٩٠م تظهر فيها هذه الصورة للعالم معقولة ومقبولة لدى خاصة الناس كانت أقوى فترات العصور الوسطى أملاً. وقد بلغت ذروتها في سلسلة من السفارات المغولية إلى الغرب بين سنتي ١٢٨٥م إلى ١٢٩٠م جاءت لتعبر عن هدف الإعداد لحملة مشتركة على الإسلام، وكان يتزعم هذه السفارات النساطرة. وقد وقع في سنة ١٢٨٧م مشهد لا مثيل له وهو مشهد رئيس سفارة المغول يحضر اجتماعاً في كنيسة (القديس بطرس St. Peter) بحضور البابا. فياله من مشهد لسلام عالمي نهائي، ووحدة تتفتح بهذه الصورة: فإما أن يقضى على الإسلام، وإما أن يدعى للدخول في النصرانية على يد الفلسفة ـ وهذا أفضل ـ والإمبراطورية المغولية الممتدة حتى تخوم الصين دولة نصرانية. والنصرانية نفسها تثرى بالتراث الفلسفي منقولاً عن اليونان على أيدي الفلاسفة المسلمين تقدم شيئاً واحداً لازماً لكمال الحقيقة النصرانية. كان مطمحاً نبيلاً، وأملاً لو تحقق جزء منه لتغير مجرى تاريخ العالم تغيراً جذرياً ـ أما لماذا لم يتحقق، وما هي نتائج عدم تحققه، على المظهر الفكري لأوربا في أواخر العصور الوسطى، فهو ما سيكون موضوع الفصل القادم.

الفصل الثالث

لحظة الرؤيا

(١)

درسنا في الفصلين السابقين الآراء الرئيسية التي تكونت في غرب أوربا عن الإسلام حتى نهاية القرن الثالث عشر. كانت الآراء الأولى مستمدة من الكتاب المقدس ولا تحوي أملاً، وكانت الثانية وهمية لا تمت للحقيقة بصلة، أما الثالثة فقد كانت فلسفية ـ ولفترة قصيرة على الأقل ـ مبالغة في تفاؤلها باقتراب وحدة العالم وتسوية الخلافات البارزة بين الإسلام والنصرانية.

وسأناقش في هذا الفصل الوضع الذي نجم عن ثبوت أن هذه الآمال كانت مجرد خيال، وهو وضع كان شديد الاضطراب وأوسع من أن يغطى كله. ولتبسيط الموضوع والإحاطة بما يجب أن أقوله عليّ أن أبين منذ البداية أن محور هذا الفصل سيكون في شكل مراسلات أدبية بين أربعة رجال مختلفي الجنسية، كتبوا في السنوات العشر الواقعة بين سنة ١٤٥٠م وسنة ١٤٦٠م ـ ولوضع هذا النقاش في موطنه الصحيح يجب أن أستغرق وقتاً في شرح الموقف كما تطور بين حوالي سنة ١٢٩٠م وبداية هذه المراسلات ـ ثم أتحدث قليلاً عن الموقف بعد سنة ١٤٦٠م.

فبعد عام ١٢٩٠م بوقت قصير ظهر شعور بالنفور من الآمال العريضة التي عمت في الثلاثين سنة السابقة. ويمكن أن توضع نقطة التحول هذه في مكانها اللائق بها وهو سقوط (عكا) سنة ١٢٩١م. فعندما وصلت أخبار سقوط هذه المدينة إلى إيطاليا كتب (ريموند لل) Raymund

Lull بعض التنبؤات تلخص بدقة آمال العقود السابقة، كما تدل أيضاً على نهاية تلك الآمال: «إذا أعيد المنشقون [النساطرة] إلى الجماعة [النصرانية] واهتدى التتار فإنه سيقضي على جميع العرب المسلمين بسهولة». كانت هذه هي الآمال التي تراود أوربا عندئذ، ولو أننا نلاحظ أن المايورقي العابس يتحدث الآن عن «التدمير» وليس عن «الهداية». غير أنه يمضي قائلاً: «إنه لمن المخوف كثيراً دخول التتار في شريعة محمد إذ لو فعلوا ذلك، طوعاً أو بإغراء العرب المسلمين، فسيكون ذلك خطراً على جميع البلاد النصرانية».

كان ذلك الخطر على وشك الوقوع، إذ كتب (ريكولدو دامنتكروشي) Ricoldo da Montecroce الفلورنسي، آخر رحالة إلى البلاد الإسلامية في العصر الوسيط في السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر له في الواقع أهمية ولديه معلومات جيدة، كتب يوضح بما يثير الإعجاب كيف أن التيار بدأ يتدفق في الاتجاه الذي تنبأ له (لل). وكان (ريكولدو) في بغداد حين وصلت أخبار سقوط عكا، ولذا فإنه كان في الموضع الذي يمكنه من إصدار حكم مناسب. وأول ما يفاجئنا في حديثه عن تجربته هو عدم إيمانه بالمغول. فقد رأى بوضوح أنهم قد بدأوا يولون وجوههم لا إلى العالم النصراني كما أمل الجيل السابق وآمن، بل إلى الإسلام، لأنهم ـ كما قال ـ «وجدوه أيسر من حيث العبادة ومن حيث العقيدة». أما أكراد تركستان فإنهم تخلوا عن نصرانيتهم ذاتها التي اكتسبوها حديثاً لصالح الإسلام، لأنهم ألفوه أكثر يسراً. أما عن النساطرة، ذلك العدد الكبير المشتت من النصارى الشرقيين والذين علقت عليهم الآمال الكبار في منتصف القرن، فإنه يتحدث عنهم لا على أنهم أولئك الرجال البسطاء المتمسكون بالعقيدة المتينة في جوهرهم والذين عرفناهم عن طريق الرحالة الأوائل، بل رجال ليسوا أحسن حالاً من المسلمين من حيث موقفهم بالنسبة للمسألة الرئيسية

في النصرانية وهي نظرية التجسد[1]. أما عن المسلمين أنفسهم فإنه بينما يقدر فضائلهم الاجتماعية ـ وخاصة سلوكهم المهيب ـ نجده يتجاهل فلاسفتهم، ويهاجم بشدة مذهبهم على أنه غير متماسك ومشوش وكاذب وغير معقول ومتهور وعنيف وغامض[2].. إلخ. وهو لم يقل شيئًا عن قربهم المفترض من النصرانية كما لم يقل شيئًا عن نهايتهم الوشيكة الوقوع. وبالرغم من اقتناعه بأن مذهب الإسلام يمكن دحضه بسهولة فهو لم يعبر عن أي اعتقاد في وجود اتفاق ما سهل أو سريع بين العقيدتين.

وقد عبر عن اتجاهات هذا العالم الفلورنسي التي لا رجاء فيها، الرحالة المتأخرون إلى البلاد الإسلامية بحماقة متزايدة ومعرفة متناقصة خلال المائة سنة التالية أو نحوها. فالراهب الفرنشيسكاني الأيرلندي (سيمون سيميونيس) Simon Semeonis مثلاً الذي سافر إلى فلسطين سنة ١٣٢٣م كان دقيق الملاحظة، وكان يصطحب معه نسخة من القرآن طالما استشهد بها. ولكنه لم يستطيع ذكر محمد أو المسلمين دون نعوت مشينة: خنازير، وحوش، أبناء أشرار، لواطون.. إلخ. وبعد عشر سنوات كتب (جيمس الفيروني) James of Verona الإيطالي تقريرًا مطولاً عن رحلة إلى البلاد الإسلامية ذاتها وسجل الكثير من الملاحظات الهامة عن المجتمعات الإسلامية والنصرانية على حد سواء التي قابلها في أسفاره. لكن الصورة التي تصدم أي قارئ قادمة إليه من القرن الثالث عشر هي أنه لم يكن لملاحظاته أي أساس من الفكر المترابط، بل إنها

---

(١) أي الاعتقاد بأن المسيح يجمع بين البشرية والألوهية أو بين الناسوت واللاهوت كما يقولون.

(٢) ويقول المؤلف في الهامش أنه لم يذكر شيئًا البتة عن الانحلال الجنسي الذي شاع عنهم فيما ذكرناه آنفا بل على العكس فإنه لم يسمع طوال إقامته بفارس أية أغنية منحلة أو جنسية وإنما سمع أغاني في مدح الله أو الرسول.

كانت بكاملها عبارة عن دجل، فيما عدا تمسكه بوجهة نظر الكُتّاب الذين سبقوه منذ عهد طويل وهي أن شريعة محمد لم تكن سوى صورة مشوهة جداً من النصرانية، فلم يكن هناك إذن أي أمل في دمج المعتقدات الإسلامية والنصرانية. وقد تلاشى كل احتمال في وجود أسس عقلية مشتركة للنقاش. ولما تجول (جيمس الفيروني) في أطلال المدن النصرانية التي ازدهرت منذ زمن في عكا وصور وصيدا وطرابلس، ولاحظ القصور التي كانت آهلة ذات يوم والأحياء التجارية وقد أصبحت مهجورة الآن إلا من القليل من البدو الرعاة، ملأ نفسه الكمد. لقد كان الغزو العسكري المتجدد احتمالاً بعيداً كبعد الأمل في التقارب الثقافي، وبالرغم من أن الإجراءات العسكرية كانت ميؤوساً منها إلا أنها ظهرت وكأنها العمل الوحيد الممكن. وقد كتب محاولاً تحريك همم النصارى الغربيين لزيارة الأراضي المقدسة على الأقل إن لم يكن في الإمكان غزوها وإعادتها إلى حظيرة النصرانية، ودعا الله أن يعجل بلحظة العودة هذه. لكن إذا كان لهذا أن يحدث فسيبدو وكأن الله نفسه هو الذي قام به، لأنه بالرغم من الخوف الذي وجده يسود الشرق من حملة صليبية جديدة فإن أي أحد في الغرب لم يظهر اهتماماً جدياً.

كانت العوامل الخارجية لتغيير الموقف تجاه الإسلام قوية بحق. وإذا كانت هذه العوامل غير كافية بذاتها فإنها سرعان ما قويت بعوامل داخلية مماثلة. ومن سخريات التاريخ المتكررة أن الحركات الفكرية الكبرى تنجح غالباً في الحصول على اعتراف رسمي بها وسند إداري في نفس اللحظة التي لم يعد لها فيها أي وزن في مجالس العالم. وهذا ما حدث الآن، فإن مدارس اللغات الحديثة التي ينادي بها (بيكون) وبعض القسس الآخرين منذ عام ١٢٥٠م، وكان نجاحهم في هذا المجال محدوداً للغاية، تقرر إنشاؤها فجأة في السياسة الرسمية للكنيسة الغربية في (مجمع فيينا) عام ١٣١٢م، لتعليم اللغات العربية

واليونانية والعبرية والسريانية، في باريس وأكسفورد وبولونيا وأفنيون وسلمانكا. لقد كان هذا القرار آخر تحية لمثل أعلى يحتضر، إذ لم يكن الرجال ولا المال في متناول اليد ليخرج هذا الحلم إلى حيز الوجود. وهكذا تلاشى دون أن يلحظه أحد.

ومن جوانب عديدة كانت السنوات التي أعقبت (مجمع فيينا) فترة نحس في تاريخ أوربا. فللمرة الأولى في العصور الوسطى نرى ثغرة واضحة بين التقليد والتجديد. فكانت قرارات الحرمان التي تلت إحداها الأخرى في تتابع سريع لكل من آراء (مرسيليوس البادوي Marslius of Padua و(وليام الأكامي) William of Ockham والفرنسيسكان الروحيين، ومؤلف دانتي «الملكية» Monarchia. وما كانت هذه القرارات إلا علامة على تفكك وحدة الفكر الغربي التي مهما نقل عنها فقد كانت تشكل الصورة الرئيسية للقرن السابق. وفي أثناء الفوضى التي أعقبت هذا الانهيار لم يبق موضع لبذل أي نشاط في محاولة تحديد مكانة الإسلام في النظام الديني لتاريخ العالم. وكان الأقل من ذلك وجود أية رغبة في التعلم من الإسلام. وقد حل مكان الحفاوة التي قوبلت بها الفلسفة الإسلامية والتي ميزت السنوات الوسيطة في القرن الثالث عشر، التشكك المتزايد والبغض الشديد لكل ما هو أجنبي، وأصبح اسم (ابن رشد) مساويًا لأكثر من مرادف للكفر، وكان أتباع القديس (توماس) يمجدونه لا لأنه تعلم من ابن رشد بل لأنه أذله. وكان هذا نصف الحقيقة التي عكست بدقة طابع العصر.

كانت علامات العصر تتمثل في: عدم الإيمان بوجود حلفاء خارج أوربا، والانفصام العميق داخلها، ولا مبالاة غير محددة بالأعداء في الخارج. وخاصة الإسلام - عدوها الأكبر. ومن الصعب شرح هذا المظهر الأخير، لأن الإسلام كان ينتشر بسرعة في أوائل القرن الرابع عشر. لكنه كان ينتشر في نواح لم تكن موطن اهتمام أوربا المباشر، متوغلاً

داخل آسيا والهند. وقد انهار الاعتقاد الذي كان يومًا ما في المغول والنساطرة النصارى كحلفاء محتملين، وبدا اختفاء النساطرة ذا أهمية لا تذكر، كما اتجه المغول الذين ذهب إليهم (وليام الربرويكي) إلى الإسلام. والحق أن الغرب لم يعد آمنًا. لكنه مازال في إمكانه ألا يلقي بالاً إلى شيء.

وهكذا ازدهرت اللامبالاة، ونما الوهم مرة أخرى، ونالت حيوات محمد الغربية فرصًا جديدة للحياة. فبعد أن كان ساحرًا إذ به يصبح اليوم كاردينالاً دفعه استياؤه من عدم انتخابه بابا إلى المجاهرة بمعاداة النصرانية. أما بالنسبة للعالم الخارجي فإن تحصيل المعلومات تخلى عن مكانه لتجربة أكثر تجانسًا، وهي تجربة صياغة الأساطير أمثال تلك التي توجها اسم (سيرجون ماندفيل) Sir John Mendeville وزودت قراء القرن الرابع عشر بالصورة التي لديهم عن آسيا والهند.

إن ملاحظة عدم الاكتراث أصعب بالطبع من ملاحظة الوهم. لكن يمكن أن نرى مثالاً واحدًا لها في التقدم الذي أحرزته «الكلمة الطيبة» Bon mot أو بالأحرى «الكلمة السيئة» Mauvais mot التي تفوه بها في الغرب لأول مرة الإمبراطور (فردريك الثاني) Frederick II، وفحواها أن الدنيا شهدت ثلاثة دجالين هم: موسى وعيسى ومحمد. وربما لم يكن هذا القول ليدهشنا إذا علمنا أنه ظهر في (مملكة صقلية) الموطن التقليدي للامبالاة ومذهب الكلبيين[1]. غير أن الفكرة ظهرت بعد ذلك في (لشبونة) عام ١٣٤٠م ثم في سنة ١٣٨٠م وما بعد في (أراغون) Aragon. وكان ذلك كله مجرد قشة في مهب الريح، لكنه ذو مغزى بالغ الخطر.

---

(١) جماعة من فلاسفة اليونان آمنوا بأن الفضيلة هي الخير الأوحد، أو بأن السلوك البشري تهيمن عليه المصالح الذاتية وحدها وعبروا عن آرائهم بالسخرية والتهكم.

وثار هذا الغموض في الجامعات، وعلى مستوى أرقى، حول ادعاء النصرانية أن البركة الأبدية مقصور منحها عليها وحدها. ولو أن هذا الغموض لم يثر إلا عند كُتّاب اشتهروا بعنف لهجتهم وانحراف تفكيرهم لما نظرنا فيه أكثر مما فعلنا. غير أن الأستاذ (نولز) Knowles لفت الانتباه منذ عهد قريب إلى رأي قال به في عام ١٣٦٠م. راهب بندكتي، هو (أوثرد البولدوني) Uthred of Boldon، في جامعة أكسفورد، خلاصته أن جميع البشر، سواء أكانوا نصارى أم مسلمين أم أتباع ملة أخرى، سيحظون برؤية الله دون حجاب وسيعرفون مصيرهم الأخير في ضوء استجابتهم لهذه التجربة. هنا رجل كان ينتمي إلى أشد النظم الدينية محافظة، وهو عالم في الإلهيات بكل أفكاره المحافظة، جاد في عمله، تقليدي، يدلي برأي يعترف فيه «للكفرة» خارج العالم النصراني بمزايا تعتبر في التفكير التقليدي النصراني قاصرة في جملتها على النصارى وحدهم. وقد أدين هذا الرأي وسحب، لكن كانت له دلالته، فإن الاهتمام بالمصير الأبدي لغير المؤمنين - ولا أعني ببساطة مجرد الرغبة في هدايتهم بل الرغبة في إيجاد وسائل لضمهم إلى نهج الخلاص إذا كان هذا ممكناً - هذا الاهتمام يعتبر أكثر ملامح تلك الفترة جاذبية. ولم تكن بواكير العصور الوسطى لتهتم إلا قليلاً جداً - إذا كانت اهتمت مطلقاً - بالتفكير في أن لهب جهنم ينتظر أولئك الذين هم خارج الحظيرة [النصرانية]، وكان الفصل الحاد بين الضأن والماعز هو القاعدة في الحياة الدينية يومئذ، ورفضت كل المحاولات لتوسيع دائرة الفداء. وإن الميل المعاكس ليستهوي كل فطرة إنسانية، لكنه يشير - بشكل أفضل أو أسوأ - إلى انحلال عرى العالم الغربي وإلى غموض الإحساس بانفصاله، كما يشير إلى تشويه الخط الجلي الفاصل بين الغرب وجيرانه.

جون ويكلف JOHN WYCLIFFE:

يمكن قياس أرباح وخسائر القرن الرابع عشر، من حيث تصويرها للتفكير حول الإسلام، بالنظر إلى أفكار (جون ويكلف). فهو رجل - مثله في ذلك مثل (روجر بيكون) ولنفس الأسباب العديدة - بولغ في مدحه كما بولغ في تحقيره دون وجه حق، ويبدو أن التحقير هو الأغلب في الوقت الراهن. وأنا لن أحاول رد اعتباره، على كل حال، غير أنني أعتقد أنه يستحق احتراماً أكثر بكثير مما نال حديثاً. وما من أحد يقرأ ولو القليل مما كتب إلا ويقدر أنه كاتب أكثر إمتاعاً من أي من معاصريه الأكاديميين الذين عرفت أعمالهم حتى الآن. ويجب أن لا نسمح لانحراف وعنف بعض أفكاره أن يشوش على الإسهاب الذي عبر به عن الأمور التي شغلت بال الكثيرين، بحدة ودونما خوف أكثر من سواه. وكانت دراسته ومجال معرفته وأغلب أفكاره هي تلك التي سادت عصره. وقد اتفق معه في عديد من آرائه، لسنين عديدة وإلى أن أصبحت من الخطورة بمكان موافقته، كثير ممن لا يتميزون بالثورية - أعني جامعة أكسفورد.

كان عند (ويكلف) بعض ما يقوله عن الإسلام في العديد من كتاباته المتأخرة، وبخاصة ما بين عامي ١٣٧٨ - ١٣٨٤م. وكانت معرفته بالإسلام معرفة بسيطة - كأغلب معاصريه - إذا قارناها بمعرفة الكتاب منذ مائة سنة مضت، وتبرز هذه البساطة بصورة خاصة في الناحية العملية من الأمر. ولا يوجد أي دليل على أنه عرف عن الإسلام شيئاً من الروايات التي سجلها كبار رحالة القرن الثالث عشر. كذلك لم يظهر الفلاسفة المسلمون بشكل واضح في أعماله، ولم يكن واضحاً لديه أن ابن رشد كان مسلماً وإن حسب في فترة ما أنه من أتباع محمد. وكان معظم معلوماته مستقى من الموسوعات - من (فنسنت البوفيزي)

Vincent of Beauvais و(رانولف هيغدن) Ranulf Higden وما يسميه: «تاريخ قديم آخر رأيته أخيراً». لكن من المهم جداً أنه قرأ القرآن وبهذا تظهر رغبته في التعرف على النصوص الأصلية. وبالرغم من أنه استخدم أعمال معاصريه وعبر عن الكثير من آرائهم وعانى من ضيق آفاقهم، فقد كان فيه شيء من أصالة النظرة يمنعه من التفكير بالطريقة التي فكر بها سواه.

إن كل ما درسناه من روايات عن الإسلام فيما سبق، سواء استوحيت من الكتاب المقدس أم من الفلسفة أم - ببساطة - من محض الخيال، وسواء رأت الإسلام علامة من علامات الساعة أم وسيلة للتعليم الفلسفي في العالم النصراني أم - ببساطة أيضاً - مسروقاً من الكنيسة الحقيقية، اتفقت جميعاً على هذه النقطة الوحيدة: الفصل التام بين النصرانية والإسلام. ومن هنا يختلف (ويكلف) كلية عن أسلافه. لقد كان مختلفاً، لكن رأي (أوثرد البولدوني) الذي استشهدت به منذ قليل يبين أن (ويكلف) كان يمضي في طريق اختطه معاصر له كان أقل ثورية بكثير. وعلى أية حال فقد أمعن (ويكلف) في الطريق نفسه حين رأى أن الصفات الرئيسية للإسلام - في نظره - كانت أيضاً هي الصفات الرئيسية الغربية في أيامه. ولا يعني هذا أنه كان ميالاً إلى الإسلام، بل العكس صحيح. فقد ارتأى أن الصفات المسيطرة على كل من الإسلام والكنيسة الغربية معاً هي: الكبرياء والجشع والرغبة في القوة وشهوة التملك والدعوة إلى العنف وتفضيل الذكاء الإنساني على كلمة الله. وكانت هذه الملامح في الغرب هي السبب الرئيسي في الانقسامات داخل العالم النصراني وفي فصل الغرب عن جيرانه. هذه الانقسامات هي التي فصلت (أفينون) Avignon عن (روما)، واليونان عن اللاتين، والنصرانية الغربية عن النسطورية وعن المجتمعات النصرانية الأخرى في آسيا والهند، وأخيراً فصلت الإسلام عن النصرانية. وقد قال - مشيراً

إلى النصرانية في جملتها : «نحن المحمديين الغربيين، ولو أن عددنا يسير بين جماعة الكنيسة كلها، نظن أن الدنيا بأسرها ستنتظم بأحكامنا وترتجف لحكمنا». وقد أحس بأنه لن يأتي من وراء مثل هذه النظرة أي خير.

لقد تسببت رذائل الكنيسة، بطريقة خفية، في ظهور الإسلام. وهي الرذائل التي لم تبدأ إلا بنمو الكبرياء والطمع وتملك الكنيسة. وكما أن الاهتمام بالحياة الدنيا في الكنيسة أنتج دين الحياة الدنيا في الإسلام، فإن الإسلام سيذبل عن طريق واحد هو عكس هذا الاتجاه في الكنيسة لا سواه. وقد كتب (ويكلف) ليلة عيد البشارة عام ١٣٨٧م: «إنني أجرؤ على القول بأن هذه اللادينية ستظل تنمو حتى يعود الأكليروس إلى فاقة يسوع المسيح ويرجعون إلى حالتهم الأولى، ذلك لأن الأضداد - كما يقول أرسطو في الكتاب الرابع من مؤلفه (الأرصاد الجوية) Meteorology - تنقض بأضدادها، ولأن جبل الرب شيد على الصبر والعذاب».

وما أن أدرك (ويكلف) فكرة الإسلام العالمي، دين القوة الدنيوية والحكم العلماني والإرادة الذاتية، المخالف لدين العناء والفقر داخل الكنيسة وخارجها، حتى أصبح قادراً على رؤية طرق كثيرة تصور هذا التوازي، فمن السمات المميزة لشريعة محمد أنه تخير لها من العهدين القديم والجديد تلك السمات التي تلائم غرضه ورفض ما عداها[1]. لكن هذا ما فعله بالضبط المسيطرون في داخل الكنيسة. وإذا كان محمد أضاف إلى الشريعة استنباطاته الشخصية فإن الأنظمة الدينية في

---

(١) يؤمن المسلمون بأن التوراة والإنجيل من عند الله، فإذا اتفق معهما القرآن في شيء فلأن ذلك كله من عند الله، وما رفضه القرآن رفض لسببين:

١ - عدم ملاءمته لتطور البشرية.

٢ - وإما لدخول التحريف فيه، وما عدا ذلك فالقرآن (مصدق لما بين يديه من الكتاب) (د).

الغرب قامت بالعمل نفسه. ثم توج محمد هذا كله ـ وهذا سر نجاحه ـ بأن عمد إلى منع النقاش في شريعته مدركًا أن العقل يضادها، فأمر بتقبلها دون مناقشة[1] أو لم يكن هذا هو حكم القانون الكنسي بالنسبة لسلطة البابا، ثم بالنسبة للقربان المقدس Euharis فيما بعد الذي لجأ أعداؤه إلى الجهل مع أتباع محمد قائلين: «إنك تستطيع الإيمان باطمئنان، أما أن تبحث فهذا ما لا أمان معه[2]»؟.

كان الصراع العظيم في العالم إذن، في الأعماق، دائرًا في أساسه بين النصرانية الإنجيلية من جانب وروح الإسلام من الجانب الآخر. وقد وجدت هذه الروح عند القسس داخل البلاد النصرانية بالقدر الذي وجدت به عند المسلمين في خارجها. ومن هنا توالت بعض النتائج ذات الأهمية الكبيرة في سبيل وضع الإسلام في إطار عالمي. وكان هذا هرطقة ـ كما ارتأى الكثيرون من الكتاب السالفين ـ وهو لم يكن هرطقة على المستوى المذهبي فحسب بل كان كذلك على مستوى الأخلاق والسلوك. وعلى هذا المستوى كانت الكنيسة الغربية مدانة أكثر حتى من الإسلام ذاته. وفضلاً عن ذلك، وبما أن الإسلام صار قابلاً للبرء بعلاج أدواء النصرانية، فإن الحرب لم تعد عديمة الجدوى فحسب ـ وكان هذا واضحًا بذاته إذ إن دوافع الحرب هي نفس الدوافع الكامنة في مصدر الداء ـ وحتى الوعظ والمجادلة في مواجهة الإسلام تعد أمرًا ثانويًا

---

(١) إذا كان المراد القرآن فهو من عند الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإذا كانت أحكام الشريعة ففيها اجتهاد كثير واختلف المجتهدون والفقهاء في أحكامها وإلا ما تعددت المذاهب، ويظهر هذا الاختلاف في الفروع لا في الأصول. وليس ثمة دين دعا إلى تحكيم العقل مثل الإسلام والقرآن على ذلك شهيد. (د).

(٢) يشير بهذا إلى القول المشهور: «اعتقد ولا تنتقد»، وهو قول عامة الطرق الصوفية وجهلتها. ويضيف بعض المتحرزين من شيوخ التصوف إلى هذه العبارة: «ولا تسلم لأحد».

بالنسبة لإصلاح الكنيسة من داخلها . وكنتيجة كبرى لتحطيم التميز الصارم بين الإسلام والنصرانية لم يعد الخلاف قاصراً على النصارى وحدهم ـ وفي هذه النقطة يعيد (ويكلف) نظرية (أوتر البولدوني) المدانة ويطورها :

«وعليه، فبالضبط كما حلت اللعنة على بعض من كانوا في الكنيسة أنقذ آخرون خارجها . فإذا كنت تعترض على هذا -وهو كذلك- فنحن لا نستطيع أن نسمي اليهود كفرة والعرب المسلمين مارقين والأغارقة منشقين إلى غير ذلك . فأرد بأن الإنسان، من أي فريق كان، يمكن أن ينقذ ـ حتى وإن كان من بين العرب المسلمين ـ إذا لم يضع عائقاً في طريق الخلاص . إن أولئك الذين يؤمنون بالرب يسوع عندما يدركهم الموت، سواء كانوا من أتباع الإسلام أو أية طائفة أخرى، سيقضي لهم بأنهم نصارى مؤمنون» .

وهكذا، فنحن نرى (ويكلف) بوجه عام أحد القوى الهدامة الكبرى في داخل الكنيسة في العصور الوسطى . وهذا، كما ظهر بعد الحادثة، صحيح دون شك . لقد لخص (ويكلف) في آرائه عن الإسلام نتائج قرن من الزمان أصبح فيه الرجال ذوو المسئولية في الغرب منتقدين لمجتمعهم كما لم يكن العهد بهم من قبل . وقد وجدوا هذا المجتمع متميزاً عن العالم الخارجي بصورة أقل وضوحاً مما أملوه من قبل وآمنوا به . ولم يكن لمعظم استنتاجات (ويكلف) عن الإسلام كبير تأثير، بل لعله لم يكن لها تأثير يذكر، فقد قمع بشدة المنهج الفكري الذي صاغها . لكن المناخ العقلي والأخلاقي الذي جعل استنباطاته تبدو مقبولة قد استمر، إما عن طريق الترهيب أو التعريب، ليجعلها تؤثر في مستقبل فكرة العصر الوسيط كله عن الإسلام . ويكفي أن نأخذ مثلاً بسيطاً واحداً، ذلك الرجل العجوز الثرثار (توماس غاسكويني) Thomas Gascoigne ـ وهو شخصية من أكسفورد في أواسط القرن

الخامس عشر للميلاد كان يمقت بالتأكيد (ويكلف) وأعماله كلها - إذ سجل في كتابه المتداول:

«سمعت رجلاً جديراً بالثقة يقول إنه سمع بين الوثنيين والعرب المسلمين أن هناك ثلاثة أسباب لعزوفهم عن الدخول في دين يسوع المسيح، أولها اختلاف وتناقض الآراء بين النصارى في مختلف الفرق وفي مختلف الموضوعات، وثانيها حياة النصارى الآثمة، وثالثها ضعف عقيدتهم وبخاصة البنادقة والجنويين».

وهذا التفسير الذي يشير إلى دخائل النصارى أنفسهم وإلى قصورهم الخاص، كمسوغ لفشلهم، وإلى انحراف الإسلام المستمر عن الحقيقة - إنما هو سمة العصر الجديد.

(٢)

وعلى كل حال فإن أمراً واحداً بات واضحاً في القرن الخامس عشر، ألا وهو وجوب القيام بعمل ما تجاه الإسلام. فعندما كان (ويكلف) يكتب كان في الإمكان، بل الشيء الوحيد الذي كان في الإمكان، معاملة الإسلام لخطره الأخلاقي وليس لخطره المادي. وكان باستطاعته الكتابة كما فعل، كان لم يكن إلا فرق قليل للاختيار بين الأساقفة والمسلمين، إذ لم يكن الأساقفة ولا المسلمون، مهما كانت رذائلهم يهددون الوطن بالسيف. كان نمو الإسلام المطرد حقيقة واقعة غير أنه كان بعيد التوقع. أما الآن فقد بدا أكثر قرباً من ذي قبل. فقد انهارت منطقة الصرب أمام هجمات الأتراك بعد خمس سنوات من وفاة (ويكلف)، وبنهاية القرن الرابع عشر كان الأتراك سادة البلقان فيما عدا البوسنة وألبانيا. ثم، وكما يحدث غالباً، فشل الخطر في متابعة تقدمه، فبات هناك مجال للانغماس في الأماني الزائفة. لكن في النهاية، وبعد ضربات شديدة، سقطت القسطنطينية، ووقف الأتراك

على شاطئ بحر الأدرياتيك، وهددت المجر بالدمار. وبحلول عام ١٤٦٠م وصلوا إلى تخوم أوربا الغربية وإلى الدولة النصرانية اللاتينية وهددوها.

كان رد الفعل لهذه الحوادث المتوقعة منذ أمد طويل مزيجًا من الخوف والرجاء. ولم يعد للأخير إلا سبب واه، فقد أدى سقوط القسطنطينية إلى حل مشكلة النصارى اليونان (الأرثوذكس) المستعصية والتي لم يكن الساسة ليجدوا لها حلاً. كان هناك بصيص أمل، أبانت الأحداث أنه وهم محض، وهو أنه سيكون للقضاء على هذا العدو الداخلي نتائج طيبة وأن مواجهة الغرب المباشرة للإسلام ربما بعثت الروح الصليبية من جديد. تلك هي الاحتمالات التي كانت أمام رجال الدولة في أواسط القرن الخامس عشر. فقد أعدوا العدة لحملة صليبية جديدة، ورجوا في الوقت نفسه أن لا تكون هناك ضرورة لها. ولعلهم أدركوا في قرارة أنفسهم أنها ما كانت ممكنة التحقيق. ذلك هو الوضع الذي واجه الساسة الأربعة الذين هم موضع اهتمامنا الآن:

كان هؤلاء الرجال متقاربي الأعمار، وكانوا أساقفة كلهم. كان ثلاثة منهم كرادلة، أو في طريقهم إلى أن يصبحوا كرادلة، وكان أحدهم فرانسيسكانيًا، وآخر في سبيله إلى أن يصير بابا. وكان لديهم جميعًا، في منتصف القرن الخامس عشر، نصيبهم من المتاعب. وكان أوضح اختلاف بينهم يكمن في جنسياتهم، إذ كان (جون السيقوفي) John of Segovia إسبانيًا، و(نقولا الكوسي) Nichola of Cusa ألمانيًا، و(جين جيرماين) Jean Germain فرنسيًا، و(آينياس سيلفيوس) Aeneas Silvius إيطاليًا. وقد اشتركوا جميعًا في شيء واحد وهو مرورهم بالتجربة التأديبية لمجلس بازل Council of Basil، فقد أجبر المجلس الرجال القادرين الأكاديميين وغير الميالين لاتخاذ المواقف الحازمة على أن يتحزبوا. وبطريقة أو بأخرى عانى كل منهم من هذه العملية،

فقد قاسى اثنان منهم مرورهم بالتجربة الأليمة لتغيير الاتجاهات، ومر الثالث بتجربة أكثر سوءا - ألا وهي عدم تغيير اتجاهه. إلا الفرنسي فإنه لم يقض مضجعه الريب. كانت هذه التجربة مشكلة غير عادية في حياتهم، وكانوا جميعًا - فيما عدا الفرنسي - مؤيدين أشداء لآراء مجلس الكنيسة، وحتى الذين تخلوا عنهم لم يتخلوا عن عطفهم على الطرف الآخر. وقد تعلموا عادة المصالحة وهي التي قامت في أوربا بتسوية أمور عدة أكثر من أي أسلوب آخر، فقد مهدت الطريق لإعادة تأسيس الوحدة البابوية من جديد، وأنهت (حركة الهسيين)[1] Hus-site Movement ويسرت السبيل أمام وحدة الكنائس اليونانية واللاتينية، فكانت هذه نتائج مفاوضات مجهدة لاحد لها. وبقيت المشكلة الإسلامية وحدها المتحدي الرئيسي - ماديًا وفكريًا - لأمن عقل أوربا وجسدها. فبأي الطرق يمكن تطبيق تجربة العقود القليلة الماضية لحل هذه المشكلة المزمنة؟ كان هذا السؤال هو الأسبق إلى أذهان رجال الدولة الأربعة جميعهم خلال السنوات العشر بين عام ١٤٥٠ - ١٤٦٠م وإجاباتهم عنه هي التي ينبغي أن نناقشها الآن.

ونبدأ بـ (جون السيقوفي) الذي بدأ أستاذًا في «سلمانكا» Sala-manca، ومنها ذهب إلى مجلس «بازل» Basil في سنة ١٤٣٣م وكان مؤيدًا قويًا لسلطة المجلس. وكتب تاريخه، وهو عمل ضخم ملأ ٢٥٠٠ ورقة في النسخة المطبوعة. ثم وجد نفسه في النهاية في الجانب الخطأ مشايعًا لمن كان ضد البابا. وقد قضى أيامه الأخيرة متقاعدًا في دير صغير بـ «سافوي»، رجلاً لا فائدة منه، أو بالمعنى الدنيوي، رجلاً مهزومًا. وهناك كرس وقته لدراسة المسألة الإسلامية، وفي خلال السنوات الخمس - قبل وفاته عام ١٤٥٨م - قام بعملين:

---

(١) هم أتباع المجدد الديني J. Huss الذي ظهر في بوهيميا، وتسبب قتله في ربط اسمه بحركة كانت في الواقع أقدم منه.

ترجمة جديدة للقرآن، ومحاولته إثارة اهتمام زملائه المبرزين بخطته لحل المشكلة برمتها. وكلا هذين المشروعين في حاجة إلى شيء من التمعن. وأهمهما ترجمة القرآن التي كانت أساس خطته الكبرى.

وهنا تبرز ثلاثة أسئلة: لماذا فكر في ضرورة ترجمة القرآن ترجمة جديدة؟ وما الصعوبات التي واجهته. وما دلالتها؟ وكيف ارتأى أن يستفاد من عمله عند إتمامه؟

أما عن السؤال الأول فيجب الاعتراف بأن جميع الترجمات كانت غير كافية إلى حد ما. لكن النقد الذي وجهه (جون السيقوفي) إلى ترجمة (بيتر المحترم) القديمة للقرآن ينحصر في أنها أدخلت في النص القرآني آراء اللاتين واستعملت كلمات وآراء تتفق مع النصرانية وليس مع الإسلام. ولعل (جون السيقوفي) لم يكن واقعياً تماماً في اعتقاده إمكان ترجمة دون هذا اللون من المسخ. ويبدو أنه فكر في أن الاحتفاظ بوضع الكلمات والفصول [السور] كما هي واتباع الأسلوب القرآني يتيح له تجنب نقاط الضعف التي كان على وعي بها في العمل الأسبق. وهو ربما كان مخطئاً في هذا، إذ إن التشويه درجات. وكان (جون) - على الأقل - مهتماً اهتماماً حقيقياً - كما لم يهتم المجادلون السابقون له ولو قليلاً - بألا يشوه تفكير الدين المنافس، وسنرى كيف كان ذلك أمراً مهماً بالنسبة له. لكن علينا، قبل المضي قدماً، أن نلقي نظرة عجلى على الصعوبات التي واجهته. وحتى إن كانت نواياه لا تستدعي التقدير فإن المصاعب التي واجهها، وتغلب عليها، توجب ذلك.

ليس هناك من شيء يوضح لنا سبب عدم الاهتمام الجاد بالإسلام في المائة والخمسين عاماً السابقة غير الصعوبة الكبرى في وجود أي فرد بأوربا يعرف اللغة العربية. وكان الإسبان المسلمون[1] في الوضع ذاته الذي كان فيه الإسبان النصارى منذ ٦٠٠ سنة خلت، إذ تخلوا عن

---

(١) أي الذين أسلموا من أهل إسبانيا.

لغتهم وثقافتهم جريًا وراء لغة وثقافة قاهريهم. ولقد قضى (جون السيقوفي) مدة سنتين للحصول على نسخة عربية من القرآن وفقيه مسلم من «سلمانكا» أبدى استعداداً للقدوم إلى سافوي والمعاونة في الترجمة. وقد كدحا معًا بضعة أشهر، ثم أصر المسلم على العودة إلى إسبانيا من أجل زوجته التي لم يمض وقت طويل على دخوله بها. وانتهى العمل في مجمله، لكن (جون السيقوفي) كان مايزال يرجو إدخال بعض التحسينات عليه. فطلب من راعي طائفة الفرنسيسكان أن يبحث له عن عالم بالعربية. وبحث هو نفسه في كل مكان غير أنه لم يجد بديلاً. ولم ينل العمل - حسب علمنا - أية مراجعة. فالبرغم من كل مشروعات القرن الثالث عشر ومرسوم (مجلس فينا) سنة ١٣١٢م لم يكن هناك نصراني واحد متمكن من اللغة العربية في أوربا بأسرها.

ترى أي هدف يمكن تحقيقه بهذا العمل المتقن؟

إن هدف (جون السيقوفي) يختلف من بعض النواحي المهمة عن هدف أولئك المجادلين السابقين حيث أراد في المكان الأول أن يهبط بالمناقشة إلى مسائلها الرئيسية، ورأى أن الكتاب السابقين اهتموا بكثير من القضايا غير الجوهرية، مثل أخلاق محمد والدحض المنطقي (القائم على المنطق) لادعائه النبوة، وما شاكل ذلك. غير أن السؤال المهم حقًا هو: هل القرآن كلمة الله أو لا؟ فإذا أمكن، بعد دراسة بسيطة، إظهاره للناس متناقضًا يحوي أخطاء وآثار تراكيب مؤلفة فإن ذلك لابد - في رأيه - أن يقنع أي امرئ بأن القرآن ليس كلام الله. وبطبيعة الحال لا يمكن تحقيق ذلك ما دامت النصوص التي بين أيدينا هي من ترجمتنا المحرفة والتي سببت بنفسها الاضطراب المزعوم وجوده في القرآن. وبناء على ذلك فإن النص الكامل الدقة أول الشروط المطلوب توافرها.

وعلى هذا المنهج من النقد والدقة النصية نستطيع أن نتبين علامات

عصر النهضة. فهو يغاير منهج (بيكون) حول المناقشة الفلسفية، فاستبدلت الحقائق بأقيسة (بيكون) المنطقية الحادة، وحلت الدراسة النقدية محل الرياضات المنطقية. لكن هذا العمل سيكون غير ذي قيمة تماماً إلا إذا وضع في متناول أولئك الذين قصدوا به. وقد كانت لدى (جون السيقوفي) فكرة جديدة عن كيف يتم ذلك. فكتب لأصدقائه من ذوي النفوذ ليؤيدوه. ويجب علينا الآن أن تدرس الخطة التي لخصها والاستجابة التي لقيها.

إن من أطول رسائل (جون) إلى أصدقائه رسالة كتبها إلى (نيكولاس الكوسي) Nicholas of Cusa ـ صديقه في الأيام الغابرة ـ صب فيها أفكاره في مجرى متدفق. ـ متدفق إلى درجة أن أحداً لم يجد الشجاعة حتى الآن لطبعها. وقد بدأ بذات الموضوع الأساسي الذي بدأ به (بيكون) كزميل فرنسيسكاني، وقد نعتبره في أحيان كثيرة خليفة (لبيكون). كان الموضوع هو أن الحرب لا يمكن لها أبداً أن تحل المشكلة القائمة بين الإسلام والنصرانية. وقد أشار (بيكون) إلى آثار الحرب السيئة على المهزومين وإلى عدم احتمال النجاح، أما (جون السيقوفي) فإن لديه سبباً مختلفاً يشبه ذلك الذي جاء به (ويكلف). فالحرب هي شكل التعبير الإسلامي الطبيعي المبني على الفتح، وهو مضاد لجوهر النصرانية. لذا فإن النصرانية ستكون حتماً هي الخاسرة في هذا الضرب من الصراع. وهي إذن تستطيع الفوز إذا اتبعت الوسائل السلمية وحدها، لأنها بذلك تكون صادقة مع نفسها.

لكن.. ما هي هذه السبل السلمية؟

يبدو أن (بيكون)، مثله مثل جملة معاصريه الفرنسيسكانيين، ارتأى أنه يجب أن تحتاج الحجج ضد الإسلام إلى مناقشة حقيقية عندما تصاغ، لأنها حينئذ يجب أن تكون بينة بذاتها، ويمكن التخلي عنها للمبشرين والوعاظ لنشر تأثيرهم. وقد رأى (جون السيقوفي) أن هذا

خطأ، لأن التبشير لا يمكن أن يسمح به إلا في أرض استعيدت فعلاً من قبضة الإسلام. وبما أنه استبعد الحرب فهو من ثم استبعد استعادة الأرض على نطاق كبير. وهو - كما أرى - أول رجل سلام أدرك أن الدعوات التبشيرية في بلاد الإسلام محكوم عليها بالإخفاق. فالقضية التي تجب مواجهتها إذن هي قضية نوع جديد من الاتصال. فكان الهدف الرئيسي من رسائله هو اقتراح أسلوب جديد للاتصال. ولكي يصف هذا النوع الجديد استعمل كلمة قديمة في شكل جديد وبمعنى جديد، وهي كلمة أصبحت في أيامنا هذه مثقلة بالمعاني، أعني كلمة «مؤتمر» Confer-ence - أو كما وضعها (جون السيقوفي) بدقة، أو بحذلقة، هكذا: «كونترافيرنتيا» Contraferentia. وكانت له، بالنسبة لهذا الأسلوب الجديد من الإقناع، ملاحظة واحدة بعيدة النظر: فقد قال إن «المؤتمر» سيخدم غرضاً مفيداً، حتى إذا لم يخدم الغاية التي اقترح من أجلها وهي هداية المسلمين. وبطريقته المضجرة المملة سجل ثلاثين ميزة يمكن توقعها منه حتى وإن فشل في غايته الكبرى. ومرة أخرى يعتبر هذا تصوراً جديداً، فإن الرأي التقليدي لا يسمح بمحاجة «الكفار» إلا إذا كانت من أجل «هدايتهم». لكن (جون السيقوفي) رأى الكثير من الميزات الجزئية والعملية غير هذه الغاية المرجوة. لقد رأى في «المؤتمر» أداة ذات وظيفة سياسية ودينية حازمة على حد سواء. وبكلمات ستداعب وتراً حساساً في صدور المحدثين صرح بأنه لو كان لهذه المحاجة أن تستمر سنوات عشراً فإنها ستكون أقل تكلفة وأخف ضرراً من الحرب.

نقولا الكوسي NICHOLAS OF CUSA:

كان حكم (جون السيقوفي) على الرجل الذي كتب له مطولاً، وهو (نيقولا الكوسي)، صائباً، فما كان ليجد إنساناً أكثر تعاطفاً منه. كان

(نيقولا) أفلاطوني المذهب الفلسفي، معتدل المزاج، هادئ الطبع، مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا في هدفه بالبحث عن الوحدة. وهو في السنين الأولى كان أحد المفاوضين الرئيسيين مع الهسين Hussites والأغارقة، وظل لسنين طويلة يجمع كل ما يمكن أن يجده عن جدال الإسلام. وكان قد ألف منذ عهد قريب كتابه De Pace Fidei وهو عبارة عن محاورة بين ممثلي أديان العالم الرئيسية. وحاول في هذا الكتاب احتضان كل ما هو طيب في أديان الشعوب، كما حاول أن يرى من خلال التفصيلات لب الحقيقة ووحدتها. وفضلا عن ذلك ـ وهذا ذو أهمية خاصة بالنسبة لموضوعنا ـ كان ناقد نصوص ذا قوة ممتازة. لقد كان أول من عالج في عصره الوثائق التاريخية بطريقة تحوز رضا الباحث المعاصر، وكان قد سجل له بعض النجاح الهام في هذا الميدان. وأهم ما جاء به هو البرهنة على أن «هبة قسطنطين[1]» Donation of Constantine هي من تلفيق عصر متأخر. ورغم أن روح الحذر فيه تجنبت النصر بإعلان برهانه كاملاً فإنها أقنعت معاصريه وأتت بالعديد من الحجج التي ماتزال تقنعنا حتى اليوم. وكان (نيقولا الكوسي) الإنسان، والفيلسوف والمؤرخ، والمفاوض، هو الرجل الذي يبحث عنه (جون السيقوفي). وقد اتبع خطط (جون) على نسق عملي نشيط. فمثلاً اقترح استعدادات للمؤتمر، وأراد أن يُستدعى تجار من القاهرة والإسكندرية وأرمينيا واليونان ليصفوا ـ دون وسيط ـ أفكار وشعائر الإسلام. وحين

---

(١) هي الهبة التي يقال إن الإمبراطور قسطنطين الأكبر قدمها للبابا سلفستر الأول (٣١٤ ـ ٣٣٥م) وخلفائه من حيث الهيمنة الروحية على البطاركة الكبار الآخرين، وعلى جميع ما يتعلق بالعقيدة والعبادة، وكذلك السيطرة في الدنيا على إيطاليا وروما وجميع العالم الغربي. ويقال إن سبب الهبة كان امتنان قسطنطين من سلفستر لأنه شفاه بمعجزة من البرص وهداه للنصرانية. ويجزم العلماء بعد البحث الطويل أن هذه الهبة مجرد زيف اختلقت في روما بين منتصف ونهاية القرن الثامن الميلادي.

تجمع المواد الأساسية ابتغى أن يكون له وسطاء يرسلون من الغرب إلى البلاد الإسلامية، مفضلاً - كما يقول - الأمراء الدنيويين الذين كان الأتراك يفضلونهم على القسس. وبهذه الطريقة يمكن أن يبدأ الاستعداد للمؤتمر الكبير.

وفوق هذا كله قرأ (نيقولا) في السنوات التي تلت تسلمه لخطط (جون السيقوفي) كتب الجدل الأساسية السابقة، وكتب أخيراً سنة ١٤٦٠م أحد أعماله الخاصة به: «غربلة القرآن» Cribratio Alchoran طبق فيه بالتفصيل خطة البحث المنهجي الأدبي والتاريخي واللغوي التي كان (جون السيقوفي) يتطلع إليها. وعالج القرآن، في الأساس، كما عالج «هبة قسطنطين» Donation of Constantine وإن بتفصيل أكبر. فقد رام تحليل القرآن إلى عناصره المختلفة، واكتشف، أو ظن أنه اكتشف، أن القرآن مكون من ثلاثة عناصر: الأولى هي النصرانية ذات الأساس النسطوري، والثانية هي مشاعر ضد النصرانية أدخلها المستشار اليهودي لمحمد، والثالثة تحريفات أتى بها «المصححون» اليهود بعد وفاة محمد. ونحن لا نقول إن لهذا التحليل للقرآن أية قيمة الآن، إلا أنه يوضح - بشيء من الصحة - بعض التأثيرات العقلية الأساسية فيه. لكن طريقة (نيقولا الكوسي) في تحديد موطن النزاع وتعريف القضايا، مهمة للغاية. وهو - مثله في ذلك مثل (جون السيقوفي) - اطرح الأساس الفلسفي وأراد أن يمضي قدماً في خطة اكتشاف الأسس التي تفصل الإسلام عن النصرانية في القرآن نفسه، معالجاً إياه كوثيقة كتبت بإيمان طيب، لها طابعها وفضائلها الخاصة. وهو بهذه الوسيلة رجا أن يكون حدد موطن النزاع. فهون من القضية بأن جعلها في جوهرها نزاعاً بين النصرانية الغربية والنصرانية النسطورية أو هرطقة انحصرت في مسألة ثانوية نسبياً، وهي مسألة اتحاد اللاهوت بالناسوت. وإن قراءة هذا الأثر لمجهدة جداً، فهو - بخلاف مناقشة (نيقولا) لـ «هبة

قسطنطين» - سوف لن يقنع القارئ المعاصر . لكنه كان محاولة مبدئية لتقديم أسس علمية لذلك النقد الجوهري للنص الذي كان سيصبح الخطوة الأولى نحو المؤتمر الكبير الذي طالما تخيله (جون السيقوفي) .

جين جرمين JEAN GERMAIN :

لم يوافق أصدقاء (جون السيقوفي) كلهم على خطته، ولم يتقبلوها بالود نفسه الذي تقبلها به (نيقولا الكوسي) ولكنهم اختلفوا فيها من نواح عدة، وقد كان (جين جرمين) أقل مراسليه تعاطفاً معه. وكان (جرمين) أسقف (شالون)[1] Châlon ومستشار طائفة (الجزة الذهبية) Golden Fleece . وقد أظهر (جون السيقوفي) عزمه على المثابرة مهما كان احتمال عدم نجاحه في توجيه مشروعه هذه الوجهة، وأما (جين جرمين) فقد نذر حياته لغرض مضاد تماماً لغرض (شيخ سالمنكا) . وقد أسف، هو الآخر، لعدم اهتمام العالم النصراني بالخطر الإسلامي، لكنه لم يكن يرى العلاج في البحث من جديد عن طريق السلام. فدعا للعودة إلى الصفات العسكرية والروحية كما صورت في الحروب الصليبية الأولى. وأخيراً خاطب ملك فرنسا في هذا المعنى فقال :

«دعنا نحيي روح (غودفري بويون) و(فيليب الفاتح) ملك فرنسا، والقديس (لويس) . فإذا قمت بهذا فإن العالم كله سيهتف : العزة والمجد والغلبة للملك شارل، ملك فرنسا المنتصر، داود الجديد، قسطنطين الجديد، شارلمان الجديد، الذي استخدم كل هذه الفتوحات التي منّ الرب بها عليه لإحياء العقيدة الكاثوليكية المقدسة. وشرف الرب ومجده، واسمه الكريم الأبدي. آمين !» .

---

(١) Châlon-Sur-Marne مدينة فرنسية تبعد ١٧٣ك عن باريس وتقع على نهر المارن.

كانت خطة (جين جرمين) تتلخص في بعث الفضائل البدائية لأبطال الملاحم هؤلاء، وقطع دابر العطن الذي دب في أوصال العالم النصراني، عن طريق الفروسية والنظام وبقمع الهرطقة والإثم. إنها لم تكن خطة سيئة إذا ما كان هناك أدنى فرصة لتطبيقها. ولعل أسوأ ما يقال عن (جين جرمين) إنه نادى بفضائل يسهل التعبير عنها بالطقوس والرموز أكثر من الأفعال، وأكثر تملقاً لميول القصور الثرية منه للعالم كله. كانت الصليبية هي الهدف العملي الوحيد الذي تشبث به بقوة، وكرس جل نشاطه لتهيئة عقول الحكام والشعوب لهذا الحدث الذي يتوقون إليه. لذلك فهو لم يكن سعيداً باستلامه عدداً وافراً من رسائل ودراسات (جون السيقوفي) قبل عيد عام ١٤٥٥م ببضعة أيام، تلك التي أراد بها (جون) بث فكرة عدم جدوى الحرب والدعوة إلى إيجاد حل سلمي لمشكلة الإسلام. وقد أجابه (جين جرمين) يوم ٢٦ ديسمبر من تلك السنة بقوله: إن احتفالات عيد الميلاد قد شغلته عن قراءة ضميمة الرسائل كلها. ومع أنه شجع، وهو في غمرة احتفالات عيد الميلاد، (جون السيقوفي) ليمضي في أبحاثه، فإنه لزاما عليه توضيح أن الأتراك كانوا يواصلون زحفهم وأن مصير العالم بأسره سيظل رهناً بمقاومتهم. وقد صاغ هذه الحجة في رسالة أخرى، بروح أشد عدائية، مؤكداً أن الحرب المقدسة تتوقف على قرارات البابوات وتطبيق الملوك. إن الكنيسة الرومانية منحت سلطتها وغفرانها للذين شاركوا في هذه الحرب التي آزرها الكتاب المقدس ووصفٌ طويل من الأبطال النصارى. وكان ثمة حرب صليبية في طريق الإعداد، وما من شيء يجب أن يفعل ليضعف الهدف العسكري لأوربا الغربية.

فماذا قدم (جون السيقوفي) في مواجهة هذه السياسة العملية؟ لقد عرض طريقاً للسلام. لكنه قبل أن يحاول ذلك يجب عليه الحصول على موافقة الأمراء المسلمين. وكيف له أن يحقق ذلك وقد منع نبي الإسلام

الجدل[1] في الدين، وتاريخ المناظرات السابقة في الجدل أوضح إخفاقها؟ إن اتخاذ أي إجراء لا يرتضيه الوجدان النصراني لا يمكن أن يكون سائغًا إلا بأمل مؤكد في الفوز. أما إذا كانت الفوائد قليلة أو منعدمة فإن الضرر المتوقع أكيد.

وهكذا فقد كان (جين جرمين) يكتب ككسيس صريح يهتم في المقام الأول بتعاليم النصرانية الصحيحة وليس بدقائق الجدل. ويجب الاعتراف بأن الكثير مما قاله لا تمكن الإجابة عنه، كما أن في وسعنا الاعتراف أيضًا أنه تحت هذا الجدل تكمن نقطتان هامتان لم يتفق عليهما أساسًا مع (جون السيقوفي). فقد كان (جين جرمين) مهتمًا في المرتبة الأولى بالعالم النصراني وبضم شعثه وتحقيق شخصيته. وقد أبدى كراهية، قبل كل شيء، لأولئك النصارى من التجار وغيرهم، الذين يتزايد عددهم، والذين كانوا يسافرون إلى بلاد الإسلام ويعودون بالشكوك في العقيدة النصرانية وبالانتقادات لها. وهو - خلافًا (لجون السيقوفي) - كان يخشى دنس المناقشة، وخلافًا له أيضًا، لم يكن يثق في إجماع أولئك الرجال العقلاء العالمين ببواطن الأمور، وهو ما كان أساس تفكير المجلس الكنسي، وكان يرنو ببصره إلى الأمير محصنًا بتعاليم الأساقفة من أمثاله. ومنذ أمد طويل، حين أصبح لأول مرة «مستشار طائفة الجزة الذهبية» بدل، أو حاول أن يبدل، بطل «الطائفة»، من (ياسون) Jason، بطل الأسطورة الوثني، إلى (جدعون)[2] Gideon، القائد اليهودي في حرب الفلسطينيين. ولم ير في «الجزة» تلك «الجزة الذهبية» الخرافية، بل جزة (جدعون) التي

---

(١) كيف يأمر نبي الإسلام بهذا والقرآن الكريم يقول: «وجادلهم بالتي هي أحسن»؟. ولست أدري من أين جاء هذا الزعم الباطل. (د).

(٢) ياسون: بطل الملحمة اليونانية (بحارة السفينة آرغو) أو (الأرغوناوتكا). وجدعون: أحد قضاة بني إسرائيل، قادهم في حربهم للمديين وغيرهم.

كانت ترمز إلى السر النصراني. لو كان في قدرة أوربا أن تنال مرة أخرى حكاماً دينيين محاربين بواسل فإن كل شيء كان سيمضي على ما يرام.

آينياس سلفيوس AENEAS SILVIUS:

بقي مراسل آخر (لجون السيقوفي) اعتمد كذلك على الحاكم، ولو أنه عبر عن اعتماده هذا بطريقة مغايرة تماماً. ففي الشهر الأخير من حياته أمسك (جون) بقلمه ليخاطب نجم المجمع البابوي الصاعد، وهو إيطالي هذه المرة، وأشهر عالم إنسانيات في عصره، أعني (آينياس سلفيوس)، وكانت هذه الرسالة آخر مجهود للسيقوفي. فقد كان مريضاً يصعب عليه أن يمسك بقلمه. كان يقترب من الموت، ولكن كان من المهم أن يبذل هذا الجهد، وقد سعى جاهداً إلى إدخال البهجة على من يراسله، فأثنى على الخطب التي ألقيت في المجامع الألمانية التي حاول فيها (سلفيوس) أن يوحي إلى أوربا بمقاومة المسلمين. ولكنه ذكره بالتحذير الإنجيلي من لقاء عشرة آلاف رجل لعشرين ألفاً من الرجال، ولم يدعه ينسى أن المسلمين، على الإجمال، أكثر عدداً من النصارى، وذكره ـ بصورة أعمق ـ بأن هبة المسيح للكنيسة هي السلام لا الحرب.

هذا هو مجمل فحوى الرسالة. ونستطيع أن نتصور أنها تركت أثراً ما في (آينياس). ولا ريب أن بعض النقاط استهوته كعالم إنسانيات اهتم بالنقد الأدبي، وإن كانت الرسالة لم تستهوه أبداً كرجل عمل ودولة. وهو لم يتمكن من الرد على (جون السيقوفي) الذي كان يحتضر آنذاك، لكن رده الفعال كان في شكل رسالة بعث بها سنة ١٤٦٠م إلى فاتح القسطنطينية (محمد الثاني) وهي تأليف رائع حقاً في لغتها الجميلة، وحكمتها الدنيوية، وفي براعة حججها الموجهة إلى شهوة القوة المسيطرة على العثمانيين، وفي تركيزها على المسائل

الجوهرية، وفي ترتيبها المؤثر للدفاع العقلي عن النصرانية، هي فريدة في بابها. ولم يكن فيها ما يؤذي مشاعر الإنسان المهذب أو الرجل الوحشي على حد سواء. فهي بأكملها من البيان والقوة والتعقل، عبر عنه بأسلوب غاية في الرقة والحجة البالغة. والشيء الوحيد الذي تفتقر إليه هو ذلك الإخلاص العميق. فقد كتب بروح محام يعد مذكرة وليس كرجل يتحدث من أعماق فؤاده. ومن وجهة نظر السياسي الأوربي يصعب القول بأن محاولة الإقناع في هذه الرسالة كانت تستحق العناء.

تبدأ الرسالة باستعراض بديع لقوة الممالك النصرانية الغربية لا يماثله تقريظ للغرب - فيما أرى - قبل ذاك الذي جاء به (جيبون) Gib-bon في كتابه «انحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية» Decline and Fall of the Roman Empire. ولقد سبق أن ذكرت هذه النبذة التي تجسد بشكل فاخر كبرياء أوربا وهي في أوج سيادتها على العالم. غير أن الموقف كان مختلفًا جدًا في عام ١٤٦٠م والأتراك يزأرون في داخل أوربا. ومع ذلك تمكن (بيوس الثاني) Pius II في مواجهة الكارثة كلها من أن يعبر عن كبرياء وثقة الحضارة العليا، فيقول:

«إنكم لستم على جهل بأمورنا لكي لا تعرفوا قوة الأمة النصرانية - قوة إسبانيا الراسخة، وبلاد الغال المحاربة، وألمانيا المزدحمة بالسكان، وبريطانيا القوية، وبولندا الجسورة، والمجر النشيطة، وإيطاليا الغنية المرتفعة الروح المعنوية والخبيرة بفن القتال. لا تدع التركي يظن أنه بسبب ذلك النجاح السهل في السنين القليلة الماضية يستطيع أن يأمل في التغلب على أمم أوربا. إنه لم يبدأ بعد تجربته الحقيقية». ويمضي (بيوس) قائلاً:

«إنه لشيء صغير، على أية حال، ذاك الذي يمكنه أن يجعلك أعظم وأقوى وأشهر رجل في زمانك. وإنك لتسأل ما هو. ليس من العسير أن تكتشفه، وليس نائيًا لتطلبه فهو موجود في جميع أرجاء العالم. قليل

من الماء تعمد به. وتتحول إلى السر النصراني المقدس وتؤمن بالإنجيل .افعل هذا، ولن يكون هناك أمير في الأرض يبزك مجداً أو يساويك قوة. سننادي بك إمبراطوراً للإغريق وعلى المشرق. والأرض التي تحتلها الآن بالقوة ستحوزها بالحق، وسيجلك النصارى جميعاً ويجعلونك الحكم بينهم. إنه من المستحيل أن تفوز وأنت متبع شريعة الإسلام. لكن تحول إلى النصرانية وستصبح أعظم رجل في زمانك بإجماع الكون».

وتمضي المحاجة:

«لعلك لا تريد التفريط في دينك لتصير نصرانياً. فاعتبر أن هناك الكثير من نقط الاتفاق بين النصرانية والإسلام: إله واحد، خالق الوجود، الإيمان بضرورة العقيدة، حياة أخرى ذات ثواب وعقاب، خلود الروح، الاستعمال المشترك للعهدين القديم والجديد. كل هذا أرضية مشتركة. ونحن لا نختلف إلا في طبيعة الرب».

وهنا يفسر بلغة عقلية لا عاطفة فيها نقط الخلاف بين العقيدتين في عبارة سلسلة رفيعة. ثم ينتقل إلى بعض التهم الموجهة إلى النصرانية. هناك، في الدرجة الأولى، تهمة تحريف الإنجيل. فيبين بيسر على أساس من النص التاريخي كيف أن هذه التهمة بعيدة الاحتمال، ويتبع تفسيره بوضع مشكلة صغيرة في النقد النصي أمام (محمد الثاني) ليؤكد بعد الاحتمال هذا، فهل يحتمل أن تكون نصوص العهد القديم العتيقة أكثر تحريفاً من تلك النصوص الجديدة المعروفة عند محمد وأتباعه[1]؟ وإذا

---

(١) لا يوجد سند متصل لكتب العهد القديم حتى نقول بأنها غير محرفة. وهناك كتب يقر بها الكاثوليك ويرفضها البروتستانت مثل كتب: باروخ وطوبيا، وزدم (الحكمة)، وكتاب المقابين وجزء من كتاب أستير. وقد ضاعت التوراة قبل غزو بختنصر وكذلك كتب العهد القديم قد فقدت أثناء الغزو ثم كتبها عزرا كما يزعمون، وضاع كذلك ما كتبه في حادثة انتيوكس الرابع (حكم –

توافقت نصوص الإغريق واليهود والأميين (غير اليهود Gentiles) في مواجهة نصوص المسلمين. فأيها أقرب إلى الصواب؟[1].

إن حججه هنا لا غبار عليها بالمقاييس العلمية.

ثم يضيف في النهاية قوله: «لو أنه ما من شيء آخر يضاد شريعتك، فإن هذا وحده كاف لإدانتها، أعني أن مشرعك حرم الجدل فيها[2]».

لقد كان [محمد] رجلاً حكيماً عبقرياً، علم أن موقفه لا يمكن الدفاع عنه عن طريق العقل، وقدر - بحق - ما كان لديه من إمكانيات.

=سوريا من سنة ١٧٤ - ١٦٤ ق.م واضطهد اليهود وذبح منهم عدداً كبيراً) ويعتقد بعض علماء الألمان أن موسى كتب سفر التكوين في الوقت الذي كان يرعى فيه الشياه بمدين في بيت صهره، وعلى هذا فهو ليس وحياً نزل عليه، قال بذلك (هورن) و(يوسي بيس) وغيرهما والعجيب أن ثمة اختلافاً كثيراً في النسخ التي ذكرها بيس، وأما الإنجيل، فلم توجد إشارة إلى إنجيل متى ومرقس ولوقا قبل آخر القرن الثاني الميلادي أو ابتداء القرن الثالث.
وكتب نورتن سنة ١٨٣٧ كتاباً في الإسناد قال فيه: «قال اكهارن في كتابه: إنه كان في ابتداء الملة النصرانية في بيان أحوال المسيح رسالة مختصرة يجوز أن يقال إنها هي الإنجيل الأصلي وكان هذا الانجيل بمنزلة القالب، وما كانت النصرانية مكتوبة فيها على الترتيب». فعنده أن هذا الإنجيل مخالف لتلك الأناجيل المشتهرة الآن.
وإذا أردت أن تعرف الرد على بيس الثاني فارجع إلى كتاب (إظهار الحق) جـ٢ تحقيق عمر الدسوقي ففيه القول الفصل. (د).

(١) الـ Gentile هو الشخص غير اليهودي، وأصل الكلمة من المصطلح العبري Goi التي تعني «أمة» وقد أطلقت على العبريين وغيرهم من الأمم. وجمع Goi هو Goyyim وعند التعريف -ha- Goyyim الأمم. وهذا الجمع في التوراة يعني «أمم العالم» غير العبريين. وعند ترجمة التوراة إلى اللاتينية حرفت Goyyim إلى Genter و Gens = الناس أو الأجناس. ثم في الإنجليزية Gentiles.

(٢) هذا قول مردود فمن حرم الجدل؟ والله يقول «وجادلهم بالتي هي أحسن» والقرآن كله وبخاصة السور المكية كلها جدال للمشركين ولأهل الكتاب يسوق فيها الله سبحانه الحجة تلو الحجة، وإلا فكيف آمن هؤلاء الذين اتبعوا محمداً وكان منهم أعداء ألداء له ولدعوته. (د).

لكننا لسنا بمستطيعين أن نطلق على منهجه الاسم العزيز (شريعة) إلا بإساءة استعمال اللغة ليس غير. «هل يصدمك هذا؟ اسمع إذن الطبيعة الحقة للشريعة: الشريعة هي العقل في حالة الفعل. وما هو ضد العقل هو ضد الشريعة. لكن مشرعك يمنع التعقيل[1]. فما يقوله إذن غير معقول، ولا يمكن له أن يكون شريعة».

هكذا أدار (بيوس الثاني)، حين ختم حجته بالارتكاز إلى العقل، هذه الظاهرة في شريعته التي اختارها (ويكلف) أيضاً نقطة التقاء بين نبي الإسلام ومحمديي الكنيسة الغربية. غير أنه عبر عن ثقة الغرب الذاتية في تفوق تراثه الكلاسيكي والنصراني، بخلاف (ويكلف) الذي بين الوهم الموجود تحت السطح. وفي ظروف ذلك العصر لابد أن الثقة بدت شيئاً أحمق. أما في ضوء الأحداث التي تلت فقد كانت نصف نبوءة.

إنني لا أستطيع أن أكتم إعجابي بهذا النتاج. فهو عمل رجل سياسي وعالم إنسانيات ورجل دنيا، يعود القهقري إلى حجج سابقة وأكثر بدائية مما صادفناه فيما مضى، إلى ضرب من الحجج ذات الحصافة السياسية التي أقنعت (قسطنطين) Constantine و(كلوفيس) Clovis. لكن (آينياس سلفيوس) بطريقته العقلية الفظة لجأ، بدلاً من الوعد بتدخل المعجزة التي رافقت فطنة (قسطنطين) و(كلوفيس) لجأ إلى العقل والإدراك العملي ليس غير، محلى بروعة بلاغة عصر النهضة كلها. ومع هذا فقد كانت بالطبع طريقة غير موفقة، ولعلها استحقت أن تكون كذلك.

---

(١) هذه كلها دعاوى كاذبة ولا يوجد دين يحكم العقل مثل الإسلام: أفلا يعقلون، أفلا تذكرون، أفلا ينظرون؟، أفلا يتدبرون... إلى غير ذلك من الآيات التي تدعو إلى استعمال العقل. والرأي والقياس والإجماع من بين مصادر التشريع الإسلامي منذ عهد الرسول ﷺ ولذلك كان الإسلام آخر الشرائع السماوية ومحمد آخر الأنبياء ﷺ.(د).

(٣)

ها نحن أولاء نأتي إلى نهاية دراستنا، ولم يبق سوى شيء قليل يمكن أداؤه، كنظم خيوط القضية التي كنا ندرسها، وإلقاء نظرة أخيرة إلى الخلف وإلى الأمام.

لقد سميت الفترة ما بين عامي ١٤٥٠ ـ ١٤٦٠م عندما كان باحثونا وسياسيونا الأربعة مشتغلين بمشكلة الإسلام، «لحظة الرؤيا». كانت الرؤيا متناقضة وواضح أنها خادعة في أحيان كثيرة. لكنني أعتقد أنها كانت أشمل وأوضح وأكثر حيوية من أية لحظة سابقة أو أخرى لاحقة لعدة قرون على الأقل. لقد جعل كُتّاب هذه الفترة، بمجهود كبير، من أنفسهم سادة المعرفة في القرن الثالث عشر، وأضافوا إليها تجربة أوسع ومقدرة في النقد الذاتي كانت ميزة القرن الرابع عشر. وقد رأوا تعقيد المشكلة التام. رأوه حقيقة عاجلة تتطلب جواباً. فابتعدوا عن المحاولات العظيمة لإعطاء الإسلام دوراً مميزاً في تاريخ العالم. لكنهم في الكفة الأخرى من الميزان كانوا مصممين على المضي قدماً، من خلال التوافه والتفاصيل غير اللازمة، إلى القضايا الجوهرية. وقد اختلفوا كثيراً حول الهدف الذي يجب بلوغه وطريقة الوصول إليه، لكنهم حاولوا أن يكونوا ذوي بساطة وشمول وتأثير. وهم يبينون عن تقدمهم على أسلافهم، لمجرد أنهم اختلفوا فيما بينهم، واتفقوا ـ رغم خلافاتهم ـ على اللجوء إلى العقل العملي والفهم وليس إلى التأملات المجردة غير الضرورية.

لقد أمسك هؤلاء السادة بعضهم بخناق بعض، لكنهم أخفقوا في الإمساك بخناق الإسلام. فلا المؤتمر الذي ابتغاه (جون السيقوفي) و(نيقولا الكوسي) ولا الحرب الصليبية التي تمناها (جون جرمين) و(آينياس سلفيوس)، وبدرجة أقل دعوة الأخير للسلطان (محمد الثاني) ـ تحققت. فإن تقدم الإسلام استمر على الحدود الشرقية ولم

يتوقف إلا في منتصف القرن السادس عشر. ومضت القوة الإسلامية في النمو بحوض البحر الأبيض المتوسط، وخيم خطر اتحاد مسلمي الشام والمغاربة في الأندلس لسنوات عديدة. وتلاشت صور الحرب الصليبية، كما تلاشت صور المحاجة والتبشير والإقناع جميعها. وبينما بلغ خطر الأتراك الأوج، وبدا الإسلام يهدد بابتلاع أوربا ظل هنالك انفجار أخير من التنبؤ الغامض Apocolyptic Prophesying يشبه ذاك الذي كان لدى (إيولوجيوس) و(باول ألفاروس) في إسبانيا إبان القرن التاسع وما كان لدى (يواكيم الفيوري) في إيطاليا في القرن الثاني عشر. ففي عام ١٥٤٢م اكتسح الترك المجر، أول مملكة كبيرة في أوربا الغربية يدمرها هجوم خارجي منذ غزوات البرابرة لألف سنة خلت. فكان ذلك أول نكسة للحركة التوسعية التي أضافت ممالك جديدة على التخوم الشرقية لأوربا في القرن العاشر. وجاء رد فعل ملك فرنسا بتحالفه مع الأتراك، وبدا أن ألمانيا ستنهار في أية لحظة.

لوثر LUTHER:

وهنا قام (لوثر) الهرم، وقد صار شيخاً كبيراً غاضباً، بترجمة أحد الأعمال الكبرى المعادية للإسلام في القرن الثالث عشر، إلى لغته الألمانية الفخمة، وهو كتاب «نقض القرآن» ConfutatioAlchoran الذي ألفه (ريكولدو المونتيكروشي) Ricoldo da Montecroce. وقد أضاف (لوثر) إلى هذه الترجمة مقدمة وملحقاً عبر فيهما - ربما دون أن يدري - بقوة عن أحد التقاليد الفكرية الراسخة في العصر الوسيط، ألا وهو القنوط من إمكان وجود أي حل سياسي أو عقلي للمشكلة الإسلامية. كان (لوثر) مقتنعاً بأنه لا يمكن هداية المسلمين، إذ قست قلوبهم واستهانوا بالكتاب المقدس، ورفضوا الجدال، وتعلقوا بسلسلة

أكاذيب القرآن[1]. ولم يكن هذا سوى ما قاله (جين جرمين) في دفاعه عن تجديد الحرب الصليبية. غير أن هذه الحرب كانت ذات جدوى، من وجهة نظر (لوثر)، مادام الغرب سادرًا في آثامه: «إن الرب لن ينصرنا أبدًا حين يحارب من أجلنا أمثال أناسنا هؤلاء». وكان مثله، في رفضه الحرب باعتبارها حلاً، مثل (روجر بيكون) و(ويكلف) و(جون السيقوفي) وربما أغلبية المثقفين منذ القرن الثالث عشر. لكن (لوثر)، خلافًا لهم، وخلافًا لأي إنسان في الغرب منذ القرن التاسع، كان ينظر إلى المستقبل وإلى احتمال أن يطبق الإسلام على العالم النصراني. فكتب ليشد من إيمان أولئك النصارى الذين ربما يجدون أنفسهم في هذا الوضع. وارتأى أن انتصار الأتراك والعرب المسلمين على مدى مئات السنين لم يظهر أنهم حازوا رضا الرب. إنهم كانوا يحققون النبوءة القائلة بأن دم المسيح سيظل يسفك من بداية العالم حتى نهايته، ليس أكثر. فوجب علينا إذن - يقول (لوثر) - أن ندع الترك والمسلمين يعملون بمشيئتهم، باعتبارهم أناسًا نزل عليهم غضب الرب، بشرط أن نظل نحن في رضاء الرب، راعين لكلمته وأسراره المقدسة.

لقد كان (لوثر) - وهو يكتب - رجلاً يشهد لحظة الغروب على العالم النصراني قبل أن يهبط الليل الطويل، وكان يتساءل، وهو ينظر في المستقبل، عما إذا كان محمد وأتباعه يمثلون المسيح الدجال. وقد أجاب بالنفي، مثلما فعل (يواكيم الفيوري). فالإسلام - في رأيه - كان أكثر فظاظة وأقل تعقلاً من أن يقوم بهذا الدور الكبير. إن المسيح الدجال الحقيقي، والنهائي، ذلك الغادر الخاتل، يجب أن يأتي من داخل الكنيسة. إنه ليس أحدًا آخر سوى البابا نفسه. وكانت هذه هي الصورة

---

(1) لعله يشير إلى اختلافنا حول ألوهية المسيح، وصلبه، فنحن نؤمن بأنه بشر وبأنه نبي وبأنه لم يصلب (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم)، وهم يعتقدون بأنه ابن الله، وبأنه صلب. (د).

كذلك عند (يواكيم) ورؤيا العصور الوسطى المتأخرة، رغم أن (لوثر) أضاف إليها عداءه اللاهوتي الخاص به. فالعالم النصراني ـ بالنسبة إليه وإليهم ـ كان قد وقع في قبضة عدو خارجي وعدو داخلي أشد هولاً. ولضمان الانتصار على العدو الخارجي لابد أولاً من الخلاص من العدو الداخلي. وإلى أن يحين الحين لهذا فلا حيلة إلا مكابدة الأمر. وقد قال (ويكلف) هذا من قبل.

هنا، إذن، نصل فكرياً إلى الانحلال النهائي لفكرة العالم النصراني كوحدة عضوية تتغلب على أعدائها الخارجيين عن طريق المنطق أو القوة. وما حدث في الواقع لم يكن ما تنبأ به (لوثر) من انحلال كما لم يكن النصر الذي خطط له الكثيرون وجاهدوا في سبيله. ففيما يخص الإسلام باءت خططهم بالإخفاق، غير أن العادات الذهنية التي اكتسبت خلال الصراع الطويل من أجل الفهم والاستيعاب كان لها منفذ في مكان آخر، وما من مكان أكثر فائدة من الشيوخ السلمانكيين الذين كان منهم (جون السيقوفي) أحد أوائل المثقفين المصلحين. حيث غيروا وجهة أفكارهم من الإسلام إلى (جبال الإنديز) وحاولوا بروح الاعتدال العقلي ذاتها أن يكشفوا عن المبادئ التي ينبغي أن تتبع لحل مشكلات العصر الجديد باتخاذ الإمبراطورية طريقها نحو الغرب. وإذا كانت المشكلة الإسلامية قد حلت فهي إنما حلت عن طريق توالي الأحداث وليس عن سبيل الأفكار أو المشروعات مهما بلغ نبلها. وكانت النتيجة العملية لهذا الجهد العقلي الكبير ضئيلة للغاية، ولو أن لها مكاناً ملحوظاً كفصل في تاريخ التجربة الأوربي. وقد تنقلنا من تأويلات (بيدي) والعلماء الكارولنجيين للكتاب المقدس إلى خيال أوائل القرن الثاني عشر الجموح. علونا إلى تأملات القرن الثالث عشر الجريئة الآملة ثم هبطنا إلى أرض النقد النصي الصلبة في القرن الخامس عشر. ولاحظنا آثار الكتاب المقدس المتباينة في تحويل أفكار الناس إلى

إعادة البناء التاريخي، وتحويل التيار المتقطع وإلى الرؤى الإلهامية القوية. رأينا كيف غيرت حركات الشعوب غير المتوقعة على نطاق واسع وجهود المترجمين المختلطة في أحد ثغور إسبانيا، كل مظاهر المشكلة الإسلامية. ثم شاهدنا نظم فكر عظيمة تختفي على حين غرة وتدخل عالم النسيان تحت تأثير التحول الجديد في أحداث العالم.

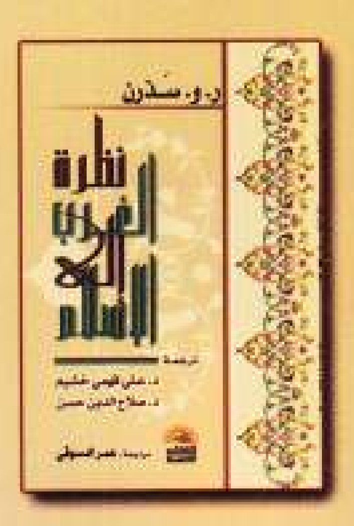
إن أوضح شيء لدينا هو عجز أي من هذه النظم الفكرية عن أن يقدم تفسيراً نهائياً مرضياً للظاهرة التي تعهدت بتفسيرها ـ وأقل من هذا تأثيرها في مجرى الأحداث الواقعية بطريقة حاسمة. فإن الأحداث ـ على المستوى العملي ـ لم تأت مطلقاً سيئة أو طيبة كما تنبأ بها أكثر المراقبين فطنة. ولعله من الجدير بالملاحظة أن هذه الأحداث ما جاءت مرة أفضل إلا إذا كانت النبوءة أسوأ ما تكون، ولا أسوأ إلا إذا كانت الأحكام بشرت في ثقة بخاتمة سعيدة.

هل كان ثمة تقدم ما ؟

يجب عليّ أن أعبر عن اقتناعي بأنه ثمة تقدم. وحتى إن ظل حل المشكلة يبتعد في عناد عن الأبصار فإن تقريرها صار أعقد، وأكثر عقلانية، وأكبر اتصالاً بالتجربة في كل من المراحل الثلاث للقضية التي تعرضنا لها. وإذا كان العلماء الذين اشتغلوا بمشكلة الإسلام في العصور الوسطى قد أخفقوا في إيجاد الحل الذي كانوا يطلبونه ويرغبون فيه، فإنهم طوروا عادات ذهنية وقوى إدراكية لعلها، عند رجال آخرين وفي ميادين أخرى، لا تزال جديرة بالنجاح والتوفيق.

المحتويات





لقد استمرأ الغرب، لعدة قرون بعد منتصف القرن السادس عشر الميلادي، ذلك التميز السهل على الثقافات الأخرى حتى نسي معنى العيش في مواجهة متحد فعلي لأمنه المادي والعقلي والروحي. وكان هذا هو وضع أوربا الغربية خلال القرون الوسطى، حين كان الغرب مدركًا لخطر العالم الإسلامي عليه.

وقد درس السيد «سذرن» باقتدار فترة القرون الثمانية والنصف من الصراع بين الإسلام والنصرانية، وهو قدم أمثلة حية ملموسة عن مميزات العهود المتعاقبة : الحرب الصليبية، والتبشير، والتعايش السلمي. وهي الاختيارات التي كانت مطروحة أمام أوربا.

ويميز المؤلف بين ثلاث مراحل رئيسية:

الأولى : أربعة قرون من عدم المبالاة. والثانية : محاولات القرن الثالث عشر المختلفة لتقدير الإسلام وتقييمه. والثالثة: أواسط القرن الخامس عشر، حين غاص بعض المفكرين الأوربيين في قضايا لم تناقش من قبل لعدة قرون. وهو يتتبع أسباب المواقف المعروضة المتباينة وإلى أي مدى أثرت في سير الأحداث أو بررتها هذه الأحداث. وإن عرضه للصراع بخلفيته التاريخية لينير الطريق أمام دارس العصور الوسطى والمهتمين بتاريخ الفكر في أي عصر من عصور الزمان.

